# الفصل التاسع:
# [غزوة حنين والطائف]

## غزوة حنين:

بعد فتح مكة والقضاء على أعظم قوة للشرك في الجزيرة العربية لم يبق أمام المسلمين إلا قبائل هوازن وثقيف المتاخمة لمكة المكرمة، وقد كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مصمما على مطاردة فلول الوثنية والإجهاز على معاقل الشرك في جزيرة العرب التي لا يجتمع فيها دينان، وقد ترامت أنباء فتح مكة في أنحاء الجزيرة العربية وخاصة في ديار هوازن وثقيف القريبة من مكة، وما أن سمعت قبائل هوازن بهذا الفتح الإسلامي الكبير حتى تداعت فيما بينها تتدارس هذا الحدث الجلل وترصد تحركاته نحوها، فكانت النتيجة أنها عزمت أن تهاجم المسلمين قبل أن يهاجموها، فأعدت عدتها وحشدت قواها المادية والبشرية، فنزلوا حنينا، وقد أرادوها موقعة حاسمة فحشدوا كل ما لديهم من القوات [1] والأموال والنساء والأبناء حتى يستقتلوا فلا يفكر أحد منهم في الفرار ويترك أهله وماله. واستنفروا معهم غطفان وغيرها [2]. وكان يقود الجموع مالك بن عوف النصري - الذي اجتمع إليه بنو نصر قومه، وبنو جشم، وبنو سعد بن بكر، وقليل من بني هلال، وعدد من بني عوف بن عامر، وعمرو بن عامر، وتخلف من هوازن كعب وكلاب، أما ثقيف فقد التحقت بهم كلها مع أحلافها بالإضافة إلى بني مالك [3] وقد بلغ تعداد قوات المشركين هذه عشرين ألف مقاتل [4]، وقد رتب مالك بن عوف قواته في صفوف حسنة، جعل الخيالة في المقدمة ثم الرجالة، وخلفهم حشد النساء والأولاد والأنعام والأثقال [5].

بلغت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبار التحشدات التي جمعتها قوى الشرك لمواجهة الإسلام، وأراد جمع المعلومات الدقيقة عنهم، ولذلك فإنه بادر بإرسال عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي للتعرف على أمرهم، فارتحل إليهم ومكث فيهم

---

(١) البخاري، الصحيح ٥/ ١٣٠ - ١٣١، مسلم، الصحيح ٢/ ٧٣٥.
(٢) البخاري، الصحيح ٥/ ١٣٠ - ١٣١، مسلم، الصحيح ٢/ ٧٣٥، الطبري، تاريخ ٣/ ٧٠.
(٣) ابن إسحاق، المغازي ص ٥٧١، الحاكم، المستدرك ٣/ ٤٨، ابن هشام، السيرة ٤/ ٤١٤.
(٤) الواقدي، المغازي ٣/ ٨٩٣.
(٥) مسلم، الصحيح ٢/ ٧٣٦ (حديث ١٠٥٩).

يوما أو يومين قبل أن يعود بأخبارهم إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [1].

لقد ذهب عبد الله إلى حيث أمره الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعاد على وجه السرعة بخبر هؤلاء الأعداء، إلا أنه فاته شئ مهم جداً إذ لم يختلط بهوازن اختلاطًا كاملاً بحيث يسمع ويرى ما يدبر ضد المسلمين هناك، وكان من أهم ما يجب أن يُعنى به معرفة مواقع المشركين التي احتلوها، وقد فوجئ المسلمون باختفاء تلك الكمائن التي نصبها الأعداء في منحنيات الوادي حتى استطاعوا أن يمطروا المسلمين بوابل من سهامهم فانهزموا في الجولة الأولى، فكان الجهل بهذه الكمائن أحد الأسباب الرئيسية وراء هزيمة المسلمين في أول المعركة، وما حدث نتيجة لهذا الخطأ لا يقدح في العصمة الثابتة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن هذا الأمر ليس وحيًا من الله سبحانه وتعالى، وإنما هو من باب الاجتهاد في الأمور العسكرية، وقد بذل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جهده في سبيل الحصول على أدق المعلومات وأوفاها لكي يضع على ضوئها الخطة العسكرية المناسبة لمجابهة العدو[2].

## استعدادات الجيش الإسلامي:

وبعد جمع المعلومات العسكرية المطلوبة عن المشركين بدأ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالاستعدادات المطلوبة لمواجهتهم وسعى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتأمين عدة الجيش فطلب من ابن عمه نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح إعارة، وطلب من صفوان بن أمية دروعًا، وتكفل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالضمان، وكان نوفل وصفوان لا يزالان على شركهما، عن صفوان بن يعلى بن أمية عن أبيه عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا أتتك رسلي فأعطهم - أو قال فادفع إليهم - ثلاثين درعا وثلاثين بعيرا، أو أقل من ذلك**» فقال له: العارية مؤداة يا رسول الله، قال: فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نعم**»[3] وفي رواية: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استعار منه يوم حنين دروعا فقال: أغصبًا يا محمد؟ قال: «**لا، بل عارية مضمونة**» قال: فضاع بعضها فعرض عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يضعها له، فقال: أنا اليوم يا رسول الله في الإسلام أرغب، قال أبو داود: وكان أعاره قبل أن يسلم ثم أسلم[4].

---

(١) الذهبي، المغازي ص ٥٧١ - ٧٢، الحاكم، المستدرك ٣/ ٤٨.

(٢) القيادة العسكرية على عهد رسول الله، ص٣٦٩.

(٣) أبو داود، كتاب البيوع، باب تضمين العارية، (٣/ ٨٢٦) رقم ٨٥٦٦.

(٤) أبو داود، كتاب البيوع والإجارات، باب تضمين العارية (٣/ ٨٢٣) رقم ٨٥٦٢.

واستدان أربعين ألف درهم من حويطب بن عبد العزى» ، وقبل عون نوفل بن الحارث بن عبد المطلب له بثلاثة آلاف رمح [١] .

وكان جيش الفتح في مكة مستعدا إذ لم يلق مقاومة تذكر في فتح مكة ، كما أن إقامته في مكة بعد الفتح مدة خمسة عشر يوما قد منحته الكثير من الراحة واستعادة النشاط ، إضافة إلى ما تحقق له من ارتفاع في الروح المعنوية بما منحه الله من نصر ، ولذلك فإنه كان مهيأ لمواجهة عدوان المشركين ، وقد تحرك جيش المسلمين بناء على أمر قائده النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في اليوم الخامس من شوال سنة ٨ هـ ميمما نحو تجمعات المشركين في حنين [٢] .

وكان قوام جيش المسلمين عشرة آلاف - وهم من خرجوا معه من المدينة - وألفان من مسلمة الفتح ؛ فكان عدد من خرج في تلك الغزوة اثني عشر ألفا ، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما كان يوم حنين أقبلت هوازن وغطفان بذراريهم ونَعمهم ومع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومئذ عشرة آلاف ومعه الطلقاء[٣] وهم ألفان[٤] فبلغ عدد قوات الجيش الإسلامي اثنى عشر ألف مقاتل ، وهو أكبر جيش للمسلمين يخرج للقتال في حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى هذه الغزوة [٥] ، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حريصا على تأمين قواته لذلك فقد اهتم بحراسة الجيش ومراقبة تحركات العدو [٦] .

ولقد كان لوجود «الطلقاء» من أبناء مكة الذين كانوا حديثي عهد بالإسلام آثاره السلبية فقد رأى بعضهم أثناء تقدم الجيش الإسلامي نحو حنين شجرة عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواط يأتونها كل سنة ، فيعلقون أسلحتهم عليها ، ويذبحون عندها ، ويعكفون عليها يوماً ، فتحلبت أفواههم على أعياد الجاهلية التي هجروها ، ومشاهدها التي طال عهدهم بها ، فقالوا: يارسول الله: إجعل لنا (ذات أنواط) كما لهم (ذات أنواط) ، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الله أكبر! قلتم**

---

(١) ابن عبد البر ، الاستيعاب ١/ ٣٨٥ .

(٢) ابن هشام ، السيرة ٢/ ٤٣٧ ، البيهقي ، السنن ٣/ ١٥١ ، النسائي ، السنن ٣/ ١٠٠ ، ابن حجر ، فتح الباري ٢/ ٥٦٢ .

(٣) الطلقاء: هم الذين أطلقهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد فتح مكة وخلى سبيلهم .

(٤) مسلم ، كتاب الزكاة ، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم (٢/ ٧٣٥) رقم ١٠٥٩ .

(٥) الواقدي ، المغازي ٣/ ٨٩٠ ، الهيثمي ، كشف الأستار ٢/ ٣٤٦ - ٣٤٧ ، ابن إسحاق: ابن هشام ، السيرة ٤/ ١٢٤ ، البيهقي ، دلائل ٥/ ١٢٣ .

(٦) أبو داود ، السنن ١/ ٢١٠ ، ٢/ ٩ ، وانظر ابن حجر ، الإصابة ١/ ٨٦ .

والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى لموسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة» ، قال: ﴿إنكم قوم تجهلون﴾ [الأعراف: ١٣٨] ، والذي نفسي بيده لتركبنّ سنن من قبلكم» [(١)] .

وهذا يعبر عن عدم وضوح تصورهم للتوحيد الخالص رغم اسلامهم ولكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوضح لهم مافي طلبهم من معاني الشرك وحذرهم من ذلك ولم يعاقبهم أو يعنفهم لعلمه بحداثة عهدهم بالإسلام[(٢)] ، وقد سمح لهم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المشاركة في الجهاد لأنه لايشترط فيمن يخرج للجهاد أن يكون قد صحح اعتقاده تماماً من غبش الجاهلية ، وإنما الجهاد عمل صالح يثاب عليه فاعله وإن قصر في بعض أمور الدين الأخرى ، بل الجهاد مدرسة تربوية تعليمية يتعلم فيه المجاهدون كثيراً من العقائد والأحكام والأخلاق وذلك لما يتضمنه من السفر وكثرة اللقاءات التي يحصل فيها تجاذب الأحاديث ، وتلاقح الأفكار[(٣)] .

ومن هذا الموقف يتبين لنا:

- أن المجتمع الجاهلي وصل إلى الدرك الأسفل في فساد الاعتقاد والجهل بحقائق التوحيد والبعد عن المنهج السوي .

- كما يدل على أن تعليق الأسلحة على ذات أنواط هذه مع أن ظاهره لا شيء فيه تابع للباعث عليه وهو الاعتقاد ، ولذلك اعتبر هذا الفعل اتخاذ إله من دون الله كما أنكر عليهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: قلتم كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إله كما لهم آلهة .

- فيه معجزة نبوية حيث أخبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن أمته ستتبع سنن الأمم الماضية ، وقد وقع ما أخبر به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وما يشاهد في حياة المسلمين اليوم من انحراف وتقليد وتبعية في مختلف جوانب الحياة دليل ظاهر على هذه المعجزة .

- فيه تحذير شديد من اتباع أهل الأهواء والزيغ من الأمم الماضية من اليهود والنصارى وغيرهم[(٤)] .

ومن تلك الآثار السلبية ، ما أصاب بعض المسلمين من غرور وإعجاب

---

(١) الترمذي ، السنن ٣/ ٣٢١ - ٣٢٢ ، النسائي ، السنن الكبرى (تحفة الاشراف (١١/ ١١٢ ، حديث ١٥٥١٦) ، أحمد المسند ٥/ ٢١٨ ، ابن كثير ، التفسير ٢/ ٢٤٣ .

(٢) السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٩٧) .

(٣) التاريخ الإسلامي للحميدي (٨/ ٦٢) .

(٤) مرويات غزوة حنين وحصار الطائف ، ص١٣٤ .

بكثرتهم ، فقال أحدهم: «لن نغلب من قلة» ، وقد أصاب هذا الشعور آخرين منهم مما استحقوا معاقبة الله لهم فأذاقهم مرارة الهزيمة في المواجهة الأولى في حنين ، وعاقبهم وبيّن لهم أن النصر هو من عند الله ، وبأن شعورهم بالزهو لكثرتهم كان سببا في ذلك الدرس القاسي ، وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥] .

ولقد انتبه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ذلك الانحراف ، فأكد لهم أن النصر من عند الله ، وأنه يفتقر لربه ويدعوه وحده فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللّهمّ بك أحول، وبك أجول، وبك أقاتل**» ، كما قص على أصحابه قصة النبي الذي أعجب بكثر أمته فابتلاهم الله بالموت ، فكان إدبارهم في المواجهة الأولى والأهوال التي واجهوها قد أرجعتهم إلى التصور الصحيح وإفراد التوكل على الله سبحانه ، فقد ذكر الصحابة " أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أيام حنين يحرك شفتيه بعد صلاة الفجر بشيء لم نكن نراه يفعله ، فقلنا يا رسول الله: إنا نراك تفعل شيئا لم تكن تفعله ، فما هذا الذي تحرك شفتيك؟ قال: إن نبيا فيمن كان قبلكم أعجبته كثرة أمته فقال: «**لن يروم**[1] **هؤلاء شيء، فأوحى الله إليه أن خير أمتك في إحدى ثلاث: إما أن نسلط عليهم عدوا من غيرهم فيستبيحهم، أو الجوع، وإما أن أرسل عليهم الموت**» . فشاورهم فقالوا: أما العدو فلا طاقة لنا بهم ، وأما الجوع فلا صبر لنا عليه ، ولكن الموت ، فأرسل عليهم الموت فمات منهم في ثلاثة أيام سبعون ألفا .

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فأنا أقول الآن - حيث رأى كثرتهم -: «**اللهم بك أحاول، وبك أصاول، وبك أقاتل**» .[2] .

هكذا أخذ الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يراقب المسلمين ويقوّم ما يظهر من انحرافات في التصور والسلوك حتى في أخطر ظروف المواجهة مع خصومه العتاة[3] .

وهذا الموقف يبين مدى صلة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربه وافتقاره إليه في

---

(١) لن يروم هؤلاء شيء: أي لن يكافئ ، أو لن يقوم لهؤلاء شيء .

(٢) أحمد: (المسند ٤/ ٣٣٢ و٣٣٣ و٦/ ١٦ - ١٨) . والسنن الكبرى للبيهقي ٩/ ١٥٣ ، والطبري: تهذيب السنن والآثار ، حديث (١٥٩ و١٦٠) . الدارمي - السنن ٥/ ١٣٥ .

(٣) المجتمع المدني في عهد النبوة للعمري ، ص١٩٩ .

جميع حركاته وسكناته، وأنه يستبعد منه أن يغتر بكثرة من معه، بل كان دأبه الخضوع والتواضع لله، والتوكل عليه في كل شؤونه، ومقام النبوة أعلى وأرفع من أن يتصور وقوع مثل هذا منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

واستقراء سيرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغزواته يدل على أن ما أصاب المسلمين من انكسار أمام أعدائهم كان مصدره مخالفة بعض أتباعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأوامره وتوجيهاته العسكرية، كما حصل في غزوة أحد، وكما حصل في غزوة حنين، فإن الروايات صحت أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجه النصح والتنبيه للمسلمين أن لا يغتروا بكثرة عددهم.

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخشى أن يغتر المسلمون ويعجبوا بكثرتهم، فأراد أن يذكرهم بما حصل لمن قبلهم من الأمم من عقوبة بسبب الاغترار والإعجاب بالكثرة.

والحقيقة أن تصرفات بعض الأعراب والطلقاء لم تكن تهمهم نتائج الصراع ومدلولاته بقدر ما كان يعنيهم الحصول على الغنائم [1]، وكذلك بعض زعماء قريش الذين كانوا يقفون في مؤخرة جيش المسلمين يراقبون تطور المعركة وينتظرون معرفة المنتصر فيها [2].

## تعبئة الجيشين:

كانت قوات المشركين قد سبقت المسلمين إلى وادي حنين، فاختاروا مواقعهم، ووزعوا قواتهم، وأحكموا خطتهم التي اعتمدت على رفع الروح المعنوية لدى جنوده بالخطب والشعارات فوقف مالك بن عوف زعيم قبائل هوازن وثقيف خطيباً في جيشه وحثهم على الثبات والاستبسال، فقال: إن محمداً لم يقاتل قط قبل هذه المرة، وإنما كان يلقي قوماً أغماراً[3]، لاعلم لهم بالحرب فيُنصر عليهم [4].

ثم أمر قائد هوازن بحشد نساء المقاتلين وأطفالهم وأموالهم خلفهم، فقال لهم: فإذا كان في السحر فصفوا مواشيكم ونساءكم وأبناءكم من ورائكم، ثم صفوا

---

(١) البخاري، الصحيح ٤/ ٢٥، مسلم، الصحيح ٣/ ١٤٠١.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ٤/ ٣٦٨، موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، ١ / ٣٧٦.

(٣) أغمار: جمع غُمر، بضم الغين وإسكان الميم وهو الذي لم يجرب الأمور.

(٤) مغازي الواقدي (٣/ ٨٩٣).

صفوفكم، ثم تكون الحملة منكم [1].

وقد قصد من وراء هذا التصرف، دفع المقاتلين إلى الاستبسال والثبات أمام أعدائهم، لأن المقاتل - من وجهة نظره - إذا شعر أن أعزّ مايملك وراءه في المعركة صعب عليه أن يلوذ بالفرار مخلفاً ماوراءه في ميدان المعركة، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إفتتحنا مكة، ثم غزونا حنيناً فجاء المشركون بحنين صفوف رأيت، قال: فصفت الخيل ثم صفّت المقاتلة، ثم صفّت النساء من وراء ذلك ثم صفت الغنم ثم صفت النعم [2].

ثم أمرهم بتجريد السيوف وكسر أجفانها، فقال لهم: واكسروا جفون سيوفكم فتلقونه بعشرين ألف سيف مكسورة الجفون، واحملوا حملة رجل واحد، واعلموا أن الغلبة لمن حمل أولا [3].

وقد جرت عادة العرب في حروبهم أن يكسروا أجفان سيوفهم قبل بدء القتال، وهذا التصرف يؤذن بإصرار المقاتل على الثبات أمام الخصم حتى النصر أو الموت [4].

وعمل مالك بن عوف علي الاستفادة من طبوغرافية الموقع وثناياه وأشجاره وانحدار طريق المسلمين إليهم، وعلى المفاجأة ومباغتة المقاتلة المسلمين بالنبال بهدف إبادتهم، وكانت عنده معلومات وافية عن الأرض التي ستدور عليها المعركة ولهذا رأى أن يستغل هذه الظروف الطبيعية لصالح جيشه، فنصب الكمائن لجيوش المسلمين، وقد كادت هذه الخطة أن تقضي على قوات المسلمين لولا لطف الله سبحانه وتعالى وعنايته [5].

وكان ضمن الخطة التي رسمها القائد الهوازني الأخذ بزمام المبادرة ومهاجمة المسلمين، لأن النصر في الغالب يكون للمهاجم، أما المدافع فغالباً مايكون في مركز الضعف [6].

وقد آتت هذه الخطة ثمارها بعض الوقت، ثم انقلبت موازين القوى - بفضل الله تعالى - ثم بثبات رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث كسب المسلمون

(١) مغازي الواقدي (٣/ ٨٩٣).
(٢) مغازي الواقدي (٣/ ٨٩٣).
(٣) مغازي الواقدي (٣/ ٨٩٣).
(٤) مجمع الزوائد (٦/ ١٧٩ - ١٨٠؛ المستدرك للحاكم (٣/ ٤٨ - ٤٩) صحيح الاسناد.
(٥) مغازي الواقدي (٣/ ٨٩٣).
(٦) مغازي الواقدي (٣/ ٨٩٣).

الجولة وانتصروا على أعدائهم[١].

وكان من ضمن بنود الخطة الحربية التي رسمها القائد مالك بن عوف الهوزاني، استعمال سلاح معنوي له تأثير كبير في النفوس، فقد شنَّ الحرب النفسية ضد المسلمين من أجل إلقاء الخوف في نفوسهم، وذلك بأن عمد إلى عشرات الآلاف من الجمال التي صحبها معه في الميدان فجعلها وراء جيشه ثم أركب عليها النساء، فكان لذلك المشهد منظر مهيب يحسب من يراه أن هذا الجيش مائة ألف مقاتل، وهو ليس كذلك[٢].

وحاص الأمر أن معنويات المشركين كانت عالية بسبب كثرتهم وشجاعتهم وخبراتهم القتالية[٣].

وعلى الجانب الإسلامي، عبأ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جيشه بالسّحر وعقد الألوية والرايات ورتب الجند على هيئة صفوف منتظمة، واستقبل بجيشه وادي حنين[٤]، وانحدروا مع بزوغ الفجر تتقدمهم على المجنبات الخيالة بقيادة خالد بن الوليد[٥]، وكان المقاتلة من بني سليم في طليعة القوات الإسلامية منذ خروجها من مكة[٦].

## بدء المعركة:

اندفع المسلمون نحو جموع هوازن، فانكشفوا، فانكب المسلمون على ما تركوه من الغنائم، وبينما هم منشغلون بذلك، نفذت هوازن الخطوة الثانية من خطتها فبغتوا المسلمين وأمطرهم الأعداء من جميع الجهات، فاضطربت صفوفهم وماج بعضهم في بعض، وسرعان ما عادت قواتها لتستقبل المسلمين، في الوقت الذي ظهرت قواتها الكامنة فأمطرتهم بوابل عنيف من السهام من الجانبين «ما يكاد يسقط لهم سهم، فرشقوهم رشقا ما كانوا يخطئون»[٧]، وفوجيء المسلمون

---

(١) القيادة العسكرية على عهد رسول الله، ص٢٥٢.

(٢) غزوة حنين للشيخ محمد أحمد باشميل، ص١٢٨ - ١٣١.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ٤/ ٣٣٠، الواقدي، المغازي ٣/ ٨٩٣، وانظر ابن هشام السيرة، ٢/ ٤٤٢، أحمد، المسند ٣/ ٣٧٦.

(٤) الواقدي، المغازي ٣/ ٨٩٥ - ٧.

(٥) البخاري، الصحيح ٥/ ١٣٠ - ١٣١، مسلم، الصحيح ٢/ ٧٣٥.

(٦) الواقدي، المغازي ٣/ ٨٩٦ - ٨٩٧.

(٧) البخاري، الصحيح ٤/ ٣٥ (حديث ٤٣١٧)، مسلم، الصحيح ٣/ ١٤٠٠ - ١٤٠١ (حديث ١٧٧٦).

وتساقط شهداؤهم [1] وضاقت عليهم الأرض بما رحبت فولوا مدبرين لا يلوون على شيء، حيث انكشفت خيالة المسلمين في البداية ثم اتبعهم المشاة، ثم بقية الجيش، واستمر القتال في هذه الجولة من الفجر إلى الليل ثم استمرت طوال ذلك الليل، وتقدم المصادر الموثقة معلومات مفصلة عن الصعوبات التي واجهها المسلمون من الحر الشديد، والأرض الرملية، وارتفاع الغبار في وجوههم مما حد من قدرتهم على الرؤية [2].

ونتيجة لهول هذا الموقف انهزم معظم الجيش ولاذوا بالفرار، كل يطلب النجاة لنفسه، وبقي الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونفر قليل في الميدان يتصدّون لهجمات المشركين وترك العباس عمّ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصف لنا ذلك المشهد المهيب حيث يقول: شهدت مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم حنين. فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطّلب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم نفارقه. ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على بغلة له بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذاميّ. فلمّا التقى المسلمون والكفّار ولّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يركض بغلته قبل الكفّار. قال عبّاس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكفّها إرادة أن لا يسرع وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أي عبّاس ناد أصحاب السّمرة**»[3]. فقال عبّاس: (وكان رجلا صيّتا) فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السّمرة؟ قال: فو الله لكأنّ عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها. فقالوا: يا لبّيك يا لبّيك. قال: فاقتتلوا والكفّار. والدّعوة في الأنصار يقولون: يا معشر الأنصار. قال: ثمّ قصرت الدّعوة على بني الحارث بن الخزرج، فقالوا: يا بني الحارث بن الخزرج. يا بني الحارث بن الخزرج. فنظر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هذا حين حمي الوطيس**» [4] قال: ثمّ أخذ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حصيات فرمى بهنّ وجوه الكفار.

---

(١) البخاري، الصحيح (الفتح حديث ٤٣١٥)، مسلم، الصحيح ٣/ ١٣٩٨ (حديث ١٧٧٥).
(٢) أحمد، المسند ٥/ ٢٨٦، الهيثمي، مجمع الزوائد ٦/ ١٨٢.
(٣) أصحاب السمرة: هي الشجرة التي بايعوا تحتها بيعة الرضوان. ومعناه نادهم.
(٤) هذا حين حمى الوطيس: قيل الوطيس هو التنور المسجور. وهذه اللفظة من فصيح الكلام وبديعه الذي لم يسمع من أحد قبل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثمّ قال: «انهزموا، وربّ محمّد» . قال: فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى . قال: فوالله ما هو إلّا أن رماهم بحصياته . فما زلت أرى حدّهم كليلا وأمرهم مدبرا[1] .

لقد كان ذلك درسا قاسيا عاقب الله تعالى به أولئك الذين أصابهم العجب والزهو ووصفهم القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥] .

## سبب هزيمة المسلمين في بداية المعركة:

إن انكشاف المسلمين وتوليهم أمام عدوّهم له عدة أسباب ، منها: ما يعود إلى استعداد العدو العسكري ، ودقة ممارسته للحروب والفروسية ، وإحكام الخطة واختيار الموقع المناسب لهجومهم المباغت دون أن يشعر بهم المسلمون ، مما أدى إلى تفوقهم وتقدمهم مبدئيا ، وقد صرحت بذلك الأحاديث الصحيحة كما سنوضح ذلك .

ومنها ما يعود إلى المسلمين أنفسهم ، فقد صدر من بعض أفراد الجيش الإسلامي في هذه الغزوة أمور أدت إلى انكسار المسلمين وتقهقرهم أمام هوازن ، كاغترار بعضهم بكثرتهم ، وطلب البعض الآخر منهم ذات أنواط ينوطون بها أسلحتهم مضاهاة منهم للكفار الذين لهم ذات أنواط .

وتهور البعض الآخر كذلكوخروجهم إلى هوازن دون أن يستكملوا وسائل القتال ، وانكباب بعضهم على جمع الغنائم وحيازتها قبل أن يستسلم الكفار استسلاما كاملا .

هذا مجمل الأسباب التي رجحت بها كفة العدو على كفة المسلمين في بداية المعركة . وسأحاول تحليل هذه الأسباب وإيضاحها مستنداً إلى الروايات الواردة في ذلك .

## أولا: أسباب نجاح هوازن في بادئ الأمر:

أ - كثرتهم الهائلة ، فقد جندوا جنودا لم يواجه المسلمين مثلها في غزواتهم مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، التي سبقت هذه الغزوة .

ب - بث الحماسة والقوة المعنوية في نفوسهم والتزامهم بتوجيهات قائدهم .

---

(١) مسلم ، كتاب الجهاد والسير ، باب في غزوة حنين (٣/ ١٣٩٩) رقم ١٧٧٢ .

ج - سبقهم إلى وادي حنين وتحصنهم بين أشجاره ومضايقه وبث الكتائب التي تكمن في جميع نواحيه.

هذه بعض المرجحات التي كانت في جانب المشركين أدت إلى تفوقهم في أول الأمر.

وخاصة خطبة مالك بن عوف فيهم، خطبته الحماسية التي كان لها أثرها الفعال ووقعها في نفوسهم، حيث أثار فيهم النخوة والشجاعة والبسالة، الأمر الذي جعل هوازن يستميتون في ساحة المعركة، يتساقطون واحدا تلو الآخر وهم مصممون على الانتصار[1].

**ثانيا: بيان الأسباب الداخلية لاندحار المسلمين في أول الأمر:**

أ - اغترار بعض المسلمين بكثرتهم، كما تقدم في حديث: "لن نغلب اليوم عن قلة".

فكانت هذه المقالة بادرة سوء تألم منها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأن فيها إعجاب بالعدد والكثرة وغفلة عن الله الذي لا يكون النصر للمسلمين إلاّ من عنده: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

ب - عدم تمكن عقيدة التوحيد في بعض المسلمين كما في حديث أبي واقد الليثي في قول بعضهم: "يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط".

وكانت هذه الكلمة مؤلمة لسمع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما يدل على وجود حفنة من هذا الجيش لم يصلوا بعد إلى المستوى الإيماني المطلوب، لحداثة عهدهم بالإسلام.

ج - الخفة والعجلة التي حصلت من بعض القوم وشبانهم، حيث خرجوا إلى هوازن قبل استكمال وسائل الحرب فلم يستطيعوا الوقوف أمام سهام المشركين ونبالهم، وهذا ما صرح به حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

د - فرار الأعراب وعدم ثبوتهم أمام المشركين مما شجع العدو في مواصلة مطاردة المسلمين.

هـ - انهزام الطلقاء:

و - انكباب المسلمين على جمع الغنائم واشتغالهم بها، وذلك أن المسلمين

---

(١) مرويات غزوة حنين وحصار الطائف، ١ / ١٤٧.

حملوا على الكفار فلاذوا بالفرار تاركين أموالهم وعتادهم، فظن المسلمون أن الكفار انهزموا إلى غير رجعة، فأقبلوا على جمع الغنائم وحيازتها، فانتهز المشركون غفلة المسلمين فانهالوا عليهم من كل صوب يضربون ويطعنون، فانكشف المسلمون أمام المشركين لا يلوي أحد منهم على أحد، والكفار في آثارهم يطاردونهم.

ز - إن ما حصل للمسلمين في غزوة حنين من انكسار أمام الأعداء، كان مصدره أمر الله وقدره، وذلك ليطأطئ رؤوس أقوام رفعها الإعجاب بكثرتهم وقدرتهم القتالية، فأدبهم الرب عز وجل ليعلمهم أن النصر من عنده سبحانه وتعالى، وأن كثرتهم وجموعهم لا تجدي عنهم شيئا[1].

والحقيقة أن من سنن الله الكونية التي لا تتخلف أن الله سبحانه وتعالى، جعل للنصر والظفر على الأعداء أسبابا، كما جعل للهزيمة والانحدار أسبابا، فمن أخذ بأسباب النصر جاءه النصر بإذن الله، ومن تخلى عنها أو عن بعضها جاءته الهزيمة والانتكاس.

والعبرة التي يجب تقريرها والتأكيد عليها في هذا المبحث أيضا أن الجيش الإسلامي الذي يكون قائده رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذا حصل منه تقصير في جنب الله، فإنه يعاقب بالهزيمة ولا يخرج عن سنة الله في ذلك، فلا ينتصر وهو غير مستوجب لشروط النصر وأسبابه.

فوقوع مثل هذا في جيوش المسلمين المقصرين في حق الله عليهم، والذين قوادهم من البشر العاديين أولى وأحرى، وإنه لدرس عظيم تقدمه لنا سيرة سلفنا الصالح وحياة ذلك الرعيل الأول، الذين عاش بين ظهرانيهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والوحي ينزل عليه، وقد أذاقهم الله حلاوة النصر من عنده إذا صبروا وصدقوا واستكملوا عناصر النصر المادية والمعنوية، ولم يغفلوا عن الله.

كما أذاقهم مرارة الهزيمة، إذا هم غفلوا عن الله وتنازعوا وركنوا إلى الدنيا وبيّن لهم أن ذلك الانهزام ما جاءهم إلا من عند أنفسهم إما إعجابا بكثرتهم أو بإقبالهم على حطام الدنيا، أو بغير ذلك من الأسباب.

والحاصل أن انتصار المسلمين مرتبط بأسباب وموانع، فإذا توفرت الأسباب وانتفت الموانع حصل النصر بإذن الله قل العدد أو كثر، كما قال تعالى: ﴿كَمْ مِنْ

(١) مرويات غزوة حنين وحصار الطائف، ١ / ١٥٥.

فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ واللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

على أنه قد يقال بعدم التعارض مطلقا بين ما وقع في حنين، وما يتضمنه قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لن يغلب اثنا عشر ألفا من قلة» [(١)] ذلك أن ما وقع في حنين ليس هزيمة كسر فيها المسلمون ولم يقم لهم بعدها قائمة في هذه المعركة، وإنما الذي حدث هو إدبار في بادئ المعركة، أعقبه بعد ذلك انتصار عظيم على الكفار، وغنيمة لما معهم، فمثل هذه الحال لا يقال فيها إنها هزيمة نهائية، وعليه فلا تعارض، وهذا أظهر واوجه. [(٢)].

## نزول النصر من عند الله:

أما النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد ثبت وصمدت معه فئة قليلة من الصحابة، وكان يركب بغلته [(٣)]، وينظر إلى إدبار المسلمين ويدعوهم إلى الثبات، وهو يدفع بغلته نحو العدو وهو يردد: «أنا النّبيّ لا كذب، أنا ابن عبد المطّلب»، ومعه العباس بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يمسكان بعنان بغلته لئلا تسرع به بين جموع العدو، وقد تراجع قليل من المسلمين يسيرا في الوقت الذي ابتعد معظمهم مدبرين ولم يصمد معه سوى عشرة أو اثني عشر من الصحابة فيهم العباس وأبو سفيان بن الحارث وأبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ) [(٤)].

ولما طلب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عمه العباس وكان جهوري الصوت أن ينادي الناس بالثبات وخص منهم أصحاب بيعة الرضوان فأسرعوا إليه عجلين، ثم نادى الأنصار ثم بني الحارث بن الخزرج فتلاحقوا نحوه حتى أصبحوا بين ثمانين ومائة مقاتل، عادوا إلى قتال هوازن وحلفائها، وكانت جولة جديدة أخلصوا فيها النية وحسن التوجه إلى الله وأظهروا فيها من الشجاعة وصدق

---

(١) ونص الحديث: "عن ابن عباس، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: خير الصحابة أربعة، وخير السرايا أربعمائة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولن يغلب اثنا عشر ألفا من قلة". (مغازي الواقدي ٣/ ٨٩٠).

(٢) مرويات غزوة حنين وحصار الطائف، ١ / ١٥٨.

(٣) مسلم - الصحيح ٣/ ١٣٩٨ - ١٤٠٠، القسطلاني - المواهب اللدنية ١/ ١٦٣، الواقدي - المغازي ٣/ ٨٩٥ - ٦.

(٤) مسلم - الصحيح ٣/ ١٣٩٨ - ١٤٠٠، الحاكم - المستدرك ٣/ ٢٥٥، أبو يعلى - المسند ٣/ ٣٣٨ (رقم ٣٠٣)، ابن هشام - السيرة ٢/ ٤٤٢.

العزيمة والثبات ما مكنهم من الصمود بوجه المشركين [1]، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو ربه ويسأله النصر، وهو يقول: «**أنا النّبيّ لا كذب أنا ابن عبد المطّلب اللّهمّ نزّل نصرك**» [2].

وحين غشيه الأعداء ترجل عن بغلته وقاتل، وكان الصحابة إذا اشتد البأس والتحم القتال يتقون به لشجاعته وثباته [3]. وعند ما رأى من فر من المسلمين موقفه وثباته وسمعوا صوت العباس يناديهم عادوا إلى المعركة والتحقوا بقوات الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم ينادون: لبّيك لبّيك! حتى إن بعضهم لم ينتظر حتى يتمكن من أن يلوي عنان بعيره ليعود به، فهو يتركه ويأخذ درعه وسيفه ورمحه ويعود راكضا حتى ينتهي إلى موقع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيجالد المشركين [4]. واشتد القتال وتكاثفت قوى الإيمان والخير فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هذا حين حمي الوطيس**» [5].

وأخذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبضة من تراب وحصيات من الأرض فرمى بهما وجوه الكفار وهو يقول: «**شاهت الوجوه**» [6]؛ فما كان منهم أحد إلّا ملئت عينه ترابا من تلك القبضة فولوا مدبرين، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**انهزموا وربّ محمّد**» كررها مرتين [7].

وهكذا لم تصمد قوات المشركين طويلا في الجولة الثانية حين صدق المسلمون ما عاهدوا الله عليه، فانهارت قوى الشرك، وفرت من ميدان المعركة بشكل غير منظم مخلفة وراءها أعدادا كثيرة من القتلى وكمية كبيرة من الغنائم، كما خلفت شراذم من قواتها تمكن المسلمون من القضاء عليهم بسهولة، وأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتعقب المشركين المهزومين وقتلهم حتى يمنع إمكانية تجمعهم ثانية واحتمال عودتهم إلى القتال فكانت خسائر المشركين في القتلى خلال هزيمتهم

---

(١) مسلم - الصحيح ٣/ ١٣٩٨ - ١٤٠٠، ابن هشام - السيرة ٢/ ٤٤٤ - ٥، الصنعاني - المصنّف ٥/ ٣٨٠ - ٨١، ابن سعد - الطبقات ٤/ ١٨.

(٢) مسلم - الصحيح ٣ (١٤٠١).

(٣) البخاري - الصحيح ٤/ ٣٥ - ٥٣، مسلم - الصحيح ٣/ ١٤٠٠ - ١٤٠١ (حديث ١٧٧٦)، النووي - شرح صحيح مسلم ٤/ ٤٠١ - ٤٠٢.

(٤) مسلم - الصحيح ٣/ ١٣٩٨ - ١٤٠٠، ابن هشام - السيرة ٢/ ٤٤٤ - ٤٤٥.

(٥) مسلم - الصحيح ٣/ ١٣٩٨ - ١٤٠٠.

(٦) مسلم - الصحيح، ٣/ ١٤٠١ - ١٤٠٢.

(٧) مسلم - الصحيح، ٣/ ١٤٠٢.

أعظم من خسارتهم خلال المعركة. وقد نهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن قتل النساء والأجراء وكل من لا يحمل السلاح، كما نهى عن قتل الأولاد والذرارى حين بلغه أن بعضهم قد قتل خلال المعركة، فقال: "ما بال أقوام بلغ بهم القتل حتى بلغ الذرية ألا لا تقتل الذرية ثلاثا".

قال أسيد: يا رسول الله أليس إنما هم أولاد المشركين؟، فأجاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أو ليس خياركم أولاد المشركين؟ كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها فأبواها يهودانها أو ينصرانها**» (١).

## عوامل انتصار المسلمين في حنين:

كانت معركة حنين تجربة عسكرية خطيرة في معارك المسلمين، وكانت أيضا مدرسة تربوية عظيمة إذ ذاق فيها المسلمون مرارة الاندحار، ووطأة الفرار أمام زحف المشركين ونبالهم وعظيم تخطيطهم واشتداد هجمتهم عليهم في بداية المعركة هجمة رجل واحد.

كما أذاقهم الله في هذه المعركة نفسها حلاوة النصر وبهجة الغلبة على أعدائهم، وتلك إحدى الحسنيين، وهذا من خصائص معركة حنين التي كانت المعركة الفاصلة الأخيرة بين المسلمين والمشركين في الجزيرة كما كانت بدرا المعركة الفاصلة الأولى بين الطائفتين.

وفي قادم السطور نبحث في عوامل انتصار المسلمين، والتي يمكن أن تكون على النحو التالي:

- ثبات الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ساحة المعركة يناشد ربه النصر والعون، ويعلن لأعداه من هوازن وغيرهم بأنه نبي حقا لا ينبغي له أن يَفِرّ مهما تكاثرت جموعهم، فكان يركض بغلته نحوهم وهو يقول:

**أنا النبي لا كذب ::: أنا ابن عبد المطلب**

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب**» (٢)، فيه إشارة

(١) أحمد - المسند ٣/ ٤٣٥.

(٢) وأما نسبته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى عبد المطلب دون أبيه عبد الله "فكأنها لشهرة عبد المطلب بين الناس لما رزق من نباهة الذكر وطول العمر، بخلاف عبد الله فإنه مات شابا، ولهذا كان كثير من العرب يدعونه ابن عبد المطلب، كما قال ضمام بن ثعلبة لما قدم: "أيكم ابن عبد المطلب" وقيل: لأنه كان اشتهر بين الناس أنه يخرج من ذرية عبد المطلب رجل يدعو إلى الله ويهدي الله الخلق على يديه ويكون خاتم الأنبياء، فانتسب إليه ليتذكر ذلك من كان يعرفه،

إلى أن صفة النبوة يستحيل معها الكذب، فكأنه يقول أنا النبي، والنبي لا يكذب، فلست بكاذبٍ فيما أقول حتى أنهزم، وأنا متيقن بأن الذي وعدني الله به من النصر، حق فلا يجوز علي الفرار[1].

- الثبات في المعركة حين لقاء العدو وذكر الله عز وجل بحضور قلب وإلحاح في الدعاء، وقد ذكر الله في هذين العاملين في قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

ولا ينتصر المسلمون على عدوهم إلا إذا حققوا في أنفسهم التحلي بهذين العاملين وغيرهما من عوامل النصر التي ذكرها الله مادية ومعنوية.

- رجوع المسلمين إلى المعركة:

لقد عاد المسلمون إلى المعركة مسرعين حين رأوا ثبات نبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحين سمعوا النداء بالرجوع كما تبينه الرواية الآتية: فلما نادي العباس بن عبد المطلب قائلاً أين أصحاب السمرة؟ عادوا أدراجهم مسرعين، يقول العباس: فوالله! لكأن عطفتهم[2]، حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك يا لبيك![3].

قال النووي: في هذا الحديث دليل على أن فرارهم لم يكن بعيدا، وأنه لم

---

وقد اشتهر ذلك بينهم، وذكره سيف بن ذي يزن قديما لعبد المطلب قبل أن يتزوج عبد الله آمنة، وأراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تنبيه أصحابه بأنه لابد من ظهوره وأن العاقبة له، لتقوى قلوبهم إذا عرفوا أنه ثابت غير منهزم. (ابن حجر: فتح الباري ٨/ ٣١ - ٣٢، والنووي: شرح صحيح مسلم ٤/ ٤٠٦، والزرقاني: شرح المواهب ٣/ ١٧، ٢٠ - ٢١ وزاد: وفي الروض قال الخطابي: إنما خص عبد المطلب بالذكر في هذا المقام تثبيتا لنبوته وإزالة للشك لما اشتهر وعرف من رؤيا عبد المطلب المبشرة به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولما أنبأت به الأحبار والكهان فكأنه يقول: أنا ذاك فلا بد مما وعدت به لئلا ينهزموا عنه ويظنوا أنه مغلوب أو مقتول، فالله أعلم أراد ذلك رسوله أم لا. إهـ.

ثم قال الزرقاني: "فليس هذا من الافتخار بالآباء في شيء، وبفرض تسليمه فهو جائز في الحرب لإرهاب العدو". وانظر: الروض الأنف للسهيلي ٧/ ٢٠٦ - ٢٠٧، والمواهب للقسطلاني ١/ ١٦٣، وفيض القدير للمناوي ٣/ ٣٨.

(١) مرويات غزوة حنين وحصار الطائف، ١ / ١٨٦.

(٢) قوله: "لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها: أي عودهم إلى أماكنهم وإقبالهم إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عطفة البقرة على أولادها، أي كان فيها انجذاب مثل ما في الأمهات حين حنت على أولادها".

(٣) النووي: شرح صحيح مسلم ٤/ ٤٠٢.

يحصل الفرار من جميعهم، وإنما فتح عليهم من في قلبه مرض من مسلمة أهل مكة المؤلفة، ومشركيها الذين لم يكونوا أسلموا، وإنما كانت هزيمتهم فجأة للانصبابهم عليهم دفعة واحدة ورشقهم بالسهام، ولاختلاط أهل مكة معهم ممن لم يستقر الإيمان في قلبه، وممن يتربص بالمسلمين الدوائر، وفيهم نساء وصبيان خرجوا للغنيمة فتقدم أخفاؤهم فلما رشقوهم بالنبل ولوا، فانقلبت أولاهم على أخراهم إلى أن أنزل الله السكينة على المؤمنين كما ذكر الله تعالى في القرآن". [1].

- المعجزة النبوية التي حصلت في هذه المعركة وذلك أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نظر إلى اجتلاد المسلمين واشتباكهم مع المشركين فقال: «**هذا حين حمي الوطيس**» ثم أخذ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار فامتلأت أعينهم ترابا من تلك الرمية فهزمهم الله عز وجل.

- تأييد الله للمسلمين بجند من عنده: وكان هذا التأييد السماوي بعد أن أدب الله المؤمنين الذين اغتروا وأعجبوا بكثرتهم وبعد أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وذلك بسبب ما حل بهم من الخوف عندما ركب الأعداء ظهورهم يسوقونهم، فركبت إبل المسلمين بعضها بعضا وولوا مدبرين، إلاّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وطائفة يسيرة معه، وفي هذه الحال الحرجة أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا من عنده تقوية لقلوب المؤمنين وتثبيتاً لهم، ولقد صوّر القرآن الكريم هذا أتم تصوير فقال: جل ذكره: ﴿**لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ**﴾ [التوبة: ٢٥].

قال الشوكاني عند تفسير هذه الآيات قوله: ﴿**ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [التوبة: ٢٦]، أي: أنزل ما يسكنهم فيذهب خوفهم حتى وقع منهم الاجتراء على قتال المشركين، بعد أن ولوا مدبرين، والمراد بالمؤمنين: هم الذين لم ينهزموا، وقيل الذين انهزموا، والظاهر جميع من حضر منهم لأنهم ثبتوا بعد ذلك وقاتلوا وانتصروا،: ﴿**وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا**﴾ قال: هم الملائكة،: ﴿**وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ بما وقع عليهم من القتل والأسر وأخذ الأموال وسبي الذرية، والإشارة بقوله: ﴿**وذلك**﴾ إلى التعذيب المفهوم من عذب وسمى ما حل بهم من العذاب في هذا اليوم جزاء مع أنه غير كاف بل لا بدّ من عذاب الآخرة مبالغة في وصف ما وقع عليهم، وتعظيما له، وقوله: ﴿**ثُمَّ يَتُوبُ**

(١) مسلم: الصحيح ٣/ ١٣٩٨ - ١٤٠٠ كتاب الجهاد والسير.

الله مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ أي من بعد هذا التعذيب على من يشاء ممن هداه منهم إلى الإسلام ،: ﴿والله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر لمن أذنب فتاب ،: ﴿الرَحِيمٌ﴾ بعباده يتفضل عليهم بالمغفرة لما اقترفوه[1] .

ويتبين من الروايات السابقة أن الله سبحانه أيد عباده المؤمنين بجنود من عنده لينصر بهم أولياءه ويخذل بهم أعداءه لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، وسواء قاتلت الملائكة فعلا في معركة حنين أو لم تقاتل فإن فائدة نزو لهم تحقق ولاشك سواء كان ذلك عن طريق القتال الفعلي أو عن طريق أمر آخر يريده الله من إنزالهم لنصرة الحق ودحض الباطل[2]

## ما أسفرت عنه معركة حنين من ضحايا وغنائم:

لقد فقد المشركون في هذه المعركة من رجالهم وأبطالهم وأهل النجدة فيهم ما يزيد على مئات القتلى ، ذلك أن معركة حنين من المعارك الفاصلة التي لم ير المسلمون مثلها ضراوة وشدة في عهدهم الأول .

لقد استمات فيها المشركون وقاتلوا ببسالة نادرة فقتل من بني مالك وحدهم سبعون رجلا يتساقطون في ساحة المعركة واحدا تلو الآخر ،[3] وفقدوا أفلاذ أكبادهم وأغلى أموالهم ، ذلك أن مالك بن عوف ساق مع الناس أموالهم ونساءهم وأولادهم ، وكان يهدف من رواء ذلك أن يكثر على المسلمين من ناحية وأن يحرض قومه على القتال والصمود في المعركة للدفاع عن أطفالهم ونسائهم من ناحية ، وأن لا يفكر واحد منهم في الفرار . فصارت جميع تلك الأموال والنساء والنعم بأنواعها رزقا ساقه اله للمسلمين على يد هؤلاء الكفار الذين قذف الله في قلوبهم إخراج أموالهم ونعمهم وشائهم وذراريهم معهم[4] .

ولهذا فقد كان سبي حنين كثيراً جداً ، فقد بلغ ستة آلاف من النساء والأبناء[5] ، أما الغنائم فقد بلغت أربعة آلاف أوقية فضة [6] ، أما الإبل فكانت

---

(١) الشوكاني: فتح القدير ٢/ ٣٤٨ .
(٢) مرويات غزوة حنين وحصار الطائف ، ١ / ١٨٩ .
(٣) وعند الواقدي في مغازيه ٣/ ٩٠٧ أن عدد القتلى منهم قريب من مائة رجل .
(٤) أبو داود الطيالسي: المسند ٢/ ١٠٨ - ١٠٩ ، وأحمد: المسند ٣/ ١٩٠ ، ٢٧٩ .
(٥) الصنعاني - المصنف ٥/ ٣٨١ ، ابن سعد - الطبقات ٢/ ١٥٥ من رواية الزهري عن ابن المسيب مرسلا ، الطبري - تاريخ ٣/ ٨٢ ، الذهبي - المغازي ص/ ٦٠٦ .
(٦) ابن سعد - الطبقات ٢/ ١٥٢ .

أربعة وعشرين ألفا»[١] ، أما الأغنام فكانت أكثر من أربعين ألف شاة [٢] ، وقد حبس الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا السبي والغنائم بالجعرانة ليتصرف فيها بعد الفراغ من أمر الطائف [٣] .

لم تكن خسائر المسلمين كبيرة خلافا للتوقعات من خلال المعلومات العامة عن إصابات المسلمين في الجولة الأولى وفرار الكثير منهم ، بل إنها كانت طفيفة جدا إذا ما أدخلنا قوة المشركين واستعداداتهم وخططهم في الاعتبار وذلك من فضل الله وحفظه ورحمته بالمسلمين ، فقد استشهد منهم أربعة شهداء [٤] ، وجرح عدد منهم ، أشارت المصادر من بينهم إلى أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعبد الله بن أبي أوفى وخالد بن الوليد [٥] ، ومما يؤكد صحة هذه الأرقام بالإضافة إلى ورودها في مرويات صحيحة ، قيام المسلمين بعد الجولة الثانية بمطاردة المشركين إلى مسافات بعيدة ، كما أنهم توجهوا إلى حصار الطائف بعد انتهاء معركة حنين مباشرة[٦] .

## ملاحقة فلول المشركين والأحداث التاريخية التي أعقبت ذلك:

لما انهزم المشركون في موقعة حنين وباءوا بالفشل انسحبوا على إثر ذلك وتفرقوا في الجبال والأودية يجرون ذيل الخزي والندامة ، تاركين وراءهم كثيرا من أطفالهم ونسائهم وأموالهم ، وعند ذلك أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمطاردتهم وتعقبهم تأديبا لهم حتى لا تسول لهم أنفسهم أن يتكتلوا أو ينقضوا على المسلمين مرة أخرى ، فلجأت مجموعة كبيرة منهم إلى أوطاس [٧] ، وعسكرت مجموعة

(١) ابن سعد – الطبقات ٢/ ١٥٢ . وكان معهم خيل وأبقار وحمير وبغال غير أن المصادر لم تذكر عددها .
(٢) ابن سعد – الطبقات ٢/ ١٥٢ .
(٣) أخرجه البزار كما في كشف الأستار للهيثمي ٢/ ٣٥٣ ، قال الحافظ ابن حجر: «إسناده حسن» ، انظر ، الإصابة ١/ ١٤٥ .
(٤) هم: أبو عامر الأسلمي ، وأيمن بن عبيد ، ويزيد بن زمعة بن الأسود ، وسراقة بن الحارث ، انظر: البخاري – الصحيح ٥/ ١٢٦ ، الحميدي – المسند ٢/ ٣٩٨ ، الهيثمي – كشف الأستار ٢/ ٣٤٦ ، وحسن إسناده الحافظ ابن حجر ، فتح الباري ٨/ ٤٢ .
(٥) البخاري – الصحيح ٥/ ١٢٦ (حديث ٤٣١٤) ، الهيثمي – كشف الأستار ٢/ ٣٤٦ ، البزار – مختصر الزوائد ص/ ٤٩ – ٥٠ (رقم ٨١٦) ، الحميدي – المسند ٢/ ٣٩٨ بإسناد صحيح .
(٦) انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ، ١ / ٣٧٩ .
(٧) واد بين حنين والطائف .

أخرى منهم في نخلة [1] ، أما غالبية من انهزم من ثقيف فقد تبعوا قائدهم مالك بن عوف النصري إلى حصونهم بالطائف ، وقد لا حق مقاتلة المسلمين الفارين حسب توجيهات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فبغد الفراغ من حنين أرسل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سرية لمطاردة وتعقب الفارين وجعل علي قيادتها أبي عامر الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان ضمن أفرادها أبو موسى الأشعري وأبو سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، وذلك لمطاردة الفارين من هوازان وجشم الذين كان على رأسهم دريد بن الصِّمة الجشمي للإجهاز مبكرًا على أي تحشد آخر لهم مضاد للمسلمين ، حيث التقوا بهم في وادٍ يسمى أوطاس ، وهناك دارت معركة قوية بين الطرفين قتل فيها دريد بن الصِّمة . "وهزم الله أصحابه" [2] بعد أن "أفضى فيهم إلى الذرية" [3] وسبوا نساءهم ، [4] وأصيب قائد السرية إصابةً قاتلةً إذ "رماه رجل [5] بسهم فأثبته في ركبته" [6] .

قال أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ابن أخي أبي عامر: "فانتهيت إليه فقلت: يا عم [7] من رماك؟ فأشار إلى أبي موسى فقال: ذاك قاتلي الذي رماني ، فقصدت له ، فلحقته ، فلما رآني ولّى ، فاتبعته وجعلت أقول له: ألا تستحي ألا تثبت فكف ، فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلته ، ثم قلت لأبي عامر: قتل الله صاحبك ، قال: فانزع هذا السهم ، فنزعته فنزا منه [8] الماء" [9] ، وكأن الجرح قد التهب على أبي عامر التهابا حادًا عرف منه قرب منيته ، فأوصى ابن أخيه أن يقرىء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منه السلام ويطلب منه أن يستغفر له ، وذلك بعد أن استخلفه على قيادة السرية "فمكث يسيرا ثم مات" [10] .

---

(١) موضع بين حنين وسبواحة .
(٢) ابن حجر ، فتح (٨/ ٤١) .
(٣) البنا ، الفتح (١٤/ ٦٥) ، البيهقي ، سنن (٩/ ١٣٠) .
(٤) صحيح مسلم بشرح النووي (١٠/ ٣٥) .
(٥) ابن حجر ، فتح (٨/ ٤٢ - ٤٣) .
(٦) ابن حجر ، فتح (٨/ ٤١) .
(٧) انظر ابن حجر ، فتح (٨/ ٤٢ - ٤٣) .
(٨) نزا منه الماء: أي ظهر وارتفع وجرى ولم ينقطع . النووي ، صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/ ٦٠) .
(٩) ابن حجر ، فتح (٨/ ٤١) .
(١٠) ابن حجر ، فتح (٨/ ٤١) .

ويرجع أبو موسى إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويدخل عليه بيته، حيث يصف لنا الحالة التي وجد عليها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لنعرف مدى ما كان عليه من الزهد وشظف العيش، وهو الذي لو أراد لحيزت له الدنيا بأسرها.

يقول أبو موسى: "دخلت عليه وهو في بيت على سرير مرمل[1]، وعليه فراش وقد أثر رمال السرير بظهر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجنبيه، فأخبرته بخبرنا، وخبر أبي عامر، وقلت له: قال: قل له: يستغفر لي، فدعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بماء فتوضأ، ثم رفع يديه ثم قال: «**اللهم اغفر لعبيد أبي عامر، حتى رأيت بياض إبطيه ثم قال: اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك، أو من الناس**». فقلت: ولي يا رسول الله فاستغفر، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مدخلا كريما**»[2][3].

بقي أن نقول أنه لم يكن بالإمكان إعطاء رقم دقيق لعدد قتلى المشركين الإجمالي في معركة حنين فقد كان عدد قتلى بني مالك من ثقيف في الجولة الثانية من حنين قد بلغ اثنين وسبعين قتيلا وقتل من الأحلاف قتيلان، وقتل بأوطاس كما أسلفنا ثلاثمائة من بني مالك، وتشير المصادر إلى أنه قتل خلق كثير من فروع هوازن الأخرى وخاصة من بني نصر بن معاوية وغيرهم ممن قتلوا أثناء فرارهم إلى نخلة من حنين[4].

## موقف الشيماء:

كان المسلمون قد ساقوا فيمن ساقوه إلى رسول الله الشيماء بنت الحارث، وبنت حليمة السعدية، أخت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الرضاعة، وعنفوا عليها في السوق، وهم لا يدرون فقالت للمسلمين: تعلمون والله اني لأخت

---

(١) ابن حجر، فتح (٨/ ٤٣).

(٢) النووي، صحيح مسلم (١٦/ ٦٠).

(٣) ابن حجر، فتح (٨/ ٤١ - ٤٢)، صحيح مسلم بشرح النووي - كتاب فضائل الصحابة (١٦/ ٥٩ - ٦٠). ورواه أحمد. انظر البنا، الفتح الرباني (٢١/ ١٧٦ - ١٧٧). ابن هشام، سيرة (٤/ ٤٥٤ - ٤٥٧)، والواقدي، مغازي (٣/ ٩١٥)، وابن عبد البر، درر (٢٤١) والعامري، بهجة المحافل (١/ ٤٢٥ - ٤٢٨)، والبيهقي، سنن (٩/ ٥١، ٩١، ٩٢، ٢٤١)، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ٢٢١.

(٤) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، ١ / ٣٨٠.

صاحبكم من الرضاعة، فلم يصدقوها حتى أتو بها رسول الله ولما انتهت الشيماء إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالت: يارسول الله! إني أختك من الرضاعة، قال ماعلامة ذلك؟ قال عضة عضضتها في ظهري، وأنا متوركتك[1]، وعرف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العلامة، وبسط لها رداءه وأجلسها عليه، وخيرها، وقال: «**إن أحببت فعندي محببة مكرمة، وان أحببت أن أمتعك وترجعي إلى قومي فعلت**»، فقالت: بل تمتعني وتردني إلى قومي[2]، ومتعها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأسلمت، وأعطاها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاثة أعبد وجارية ونعماء وشاء[3].

## غزوة الطائف:

كان لثقيف مواقف عدائية ضد المسلمين منذ ظهور الإسلام، ومن أبرزها موقفهم الآثم من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما ذهب إليهم يدعوهم إلى الله عز وجل ويطلب منهم نجدته حتى يؤدي رسالة ربه، فردوه ردا قبيحا وأغروا سفهاءهم وصبيانهم بمطاردة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورميه بالأحجار حتى أدموا قدميه[4] ومن تلك المواقف تكتل ثقيف مع قريش في صلح الحديبية، ونصرهم لها على المسلمين ولما دانت قريش بالإسلام بفتح مكة المكرمة ثارت ثائرة هوازن فأخذت في حشد قواتها للزحف على المسلمين، فكانت ثقيف أول من لبى دعوتها وانحاز إلى جانبها، فخرجت الأحلاف من ثقيف بقيادة قارب بن الأسود الثقفي، وخرجت بنو مالك بقيادة ذي الخمار سبيع بن الحارث وأخيه أحمر بن الحارث، ووقفت مع هوازن كتلة واحدة في وجه المسلمين.

ولما اندحر الفريقان الهوازني والثقفي في موقعة حنين أمام جحافل المسلمين، انسحبوا من ساحة المعركة، فعسكر بعضهم بأوطاس، وبعضهم بنخلة، وتوجه بعض منهم نحو الطائف ومعه مالك بن عوف النصرى، فدخلوا حصن الطائف وتحصنوا به.

---

(١) متوركتك: يعني حاملتك على وركي.

(٢) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٦٣)؛ السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥٠٦).

(٣) ابن إسحاق - سيرة ابن هشام ٢/ ٤٥٨، البيهقي - دلائل النبوة ٣/ ٥٦، الطبري - جامع البيان ١٠/ ١٠١، وعن لقاء حليمة السعدية، انظر البخاري - الأدب المفرد ص/ ٤٤٠، أبو داود - السنن ٢/ ٦٣٠، الحاكم - المستدرك ٣/ ٦١٨، ٤/ ١٦٤، ابن كثير - البداية ٤/ ٣٦٤، السيرة النبوية للندوي، ص٣٥٨.

(٤) سيرة ابن هشام ١/ ٤١٩ والبداية والنهاية ٣/ ١٣٥.

ولما فرغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حنين أمر بالغنائم فحبست في الجعرانة، ثم قرر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السير بنفسه إلى الطائف[1].

وأمر خالد بن الوليد أن يسير على مقدمته[2].

فتجمعت قوات المسلمين في أعقاب النصر المظفر الذي كتبه الله لهم في معركة حنين، وتوجهوا بقيادة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الطائف بهدف القضاء على قوات ثقيف التي فرت من حنين، وكانت فلول ثقيف بقيادة مالك بن عوف قد لجأت إلى حصونها المنيعة في الطائف وجمعت ما يكفيها من المؤن الغذائية لعام كامل، وأغلقت أبوابها واتخذت كافة الإجراءات والاستعدادات التي تمكنها من مواجهة حصار طويل وواصلت ترميم الحصون وتدعيمها إلى حين وصول طلائع المسلمين المتجهة نحوهم[3].

وصل الجيش الإسلامي إلى الطائف في حدود نهاية الأسبوع الثالث من شهر شوال، فباشروا إحكام الحصار حول حصون العدو مدة أسبوعين، وكان نزولهم أول الأمر قريبا من حصون العدو وعلى مرمى سهامهم مما أدى إلى سقوط عدد من الشهداء وجرح عدد آخر منهم، ثم تحول المسلمون وعسكروا في الموضع الذي بنى فيه المسجد[4]، وكان القتال تراشقا بالسهام في أول الأمر، ثم استخدم المسلمون «الدبابة» بهدف الوصول إلى الأسوار وثقبها آمنين من السهام، ولكن ثقيفا فطنت للأمر فألقت عليهم قطع حديد محمّاة أحرقت الدبابة وحين خرج المقاتلون المسلمون منها، ضربوهم بالسهام فقتلوا بعضهم. . واستخدم المسلمون المنجنيق لرمي التحصينات بالحجارة بهدف هدمها وإيقاع إصابات في قوات العدو في الوقت نفسه[5].

ومن الملاحظ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استعمل في حصاره للطائف أسلحة جديدة لم يسبق له أن استعملها من قبل مثل المنجنيق وهو من أسلحة الحصار

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٧٨، والروض الأنف ٧/ ٢٣١، البداية والنهاية ٤/ ٣٤٥و٣٤٧ وزاد المعاد ٣/ ٤٧٢ وفتح الباري ٨/ ٣٣و٣٥.

(٢) طبقات ابن سعد ٢/ ١٥٨، زاد المعاد ٣/ ٤٩٦.

(٣) ابن هشام - السيرة ٤/ ١٧٠ - ١٧١، ابن سعد - الطبقات ٢/ ١٥٨.

(٤) مسلم - الصحيح ٢/ ٧٣٦، أحمد - المسند ٣/ ١٥٧، وانظر رأي الحافظ ابن كثير - البداية والنهاية ٤/ ٣٥٦، ابن هشام - السيرة ٢/ ٤٧٨.

(٥) ابن هشام - السيرة ٢/ ٤٧٨ - ٤٨٣ برواية ابن إسحاق.

الثقيلة ذات التأثير الفعال على من وُجهّت إليه ، فبحجارته تُهدّم الحصون والأبراج وبقنابله تُحرق الدور والمعسكرات ، وهذا النوع يحتاج إلى عدد من الجنود في إدارته واستخدامه عند القتال[1] .

والدبابة ، وهي من أسلحة الحصار الثقيلة التي استعملها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأول مرة في حصار الطائف وهي على شكل بيت صغير تعمل من الخشب وتتخذ للوقاية من سهام الأعداء ، عندما يُراد نقض جدار الحصن بحيث إذا دخلها الجنود كان سقفها حرزاً لهم من الرمي[2] .

غير أن هذه الآلات وعدم وجود خبراء في استعمالها وإجادة التهديف بها جعل أثرها محدودا . ولذلك فقد وجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أفضل وسيلة للضغط على ثقيف هي في تهديد مواردها الاقتصادية الحيوية المتمثلة في بساتينها ، فأمر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتحريق بساتين الأعناب والنخيل في ضواحي الطائف ، مما كان له أثره الكبير في كسر معنوياتهم ، فناشدوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدعها للّه وللرحم ، فاستجاب لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن تحقق الهدف المنشود[3] .

وكان من التعليمات العسكرية أن أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مناديا ينادي ، أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر ، فخرج جماعة فأعتقهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ودفع كل واحد منهم إلى رجل من المسلمين يمونه ، فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة وزاد من ألمهم[4] .

وكان ذلك من أعظم التدابير العسكرية التي أضعفت من قوة المشركين وفتت في عضدهم ومعنوياتهم وفرقت جمعهم ، فأسلم هؤلاء ، فأعتقهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولم يعدهم إلى ثقيف بعد إسلامهم[5] .

لقد صمدت ثقيف بوجه الحصار ، ورغم ما واجهته من وابل السهام التي أمطرها بها المسلمون لينالوا بها درجة من الجنة وعدهم بها رسول الله

---

(١) اللواء محمد فرج ، المدرسة العسكرية الإسلامية ، ص٤٠٧ .
(٢) القيادة في عهد الرسول ، ص٤٠٥ .
(٣) البيهقي ، السنن الكبرى ٩/ ٨٤ ، الشافعي ، كتاب الأم ٧/ ٣٢٣ .
(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ١٥٨ - ١٥٩ .
(٥) البخاري - الصحيح ٥/ ١٢٩ ، أحمد - المسند ١/ ٢٣٦ ، ابن حجر - فتح الباري ٨/ ٤٦ ، الصنعاني - المصنّف ٥/ ٣٠١ ، ابن سعد - الطبقات ٢/ ١٥٨ - ١٥٩ ، وانظر ابن هشام - السيرة ٢/ ٤٨٥ .

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وقد تمكنت ثقيف من إيقاع إصابات شديدة بالمسلمين فقد كثرت الجراحات بينهم واستشهد منهم اثنا عشر شهيدا ، وكل ذلك مقابل ثلاثة قتلى في صفوف ثقيف التي كانت ممتنعة بالحصون والأسوار العالية [1] .

لقد نجحت التدابير العسكرية التي استخدمها المسلمون بتوجيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم وهي: الأمر بقطع أعناب ثقيف ونخيلهم وتحريقها إغاظة لهم وهزا لمعنوياتهم وكان في ذلك نكاية بالغة بهم ، حتى طالبوا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدعها لله وللرحم ، فلما بلغته مناشدتهم له بذلك ، تركها ، ولكن بعد أن أثر بدون شك في نفوس القوم وأضعف عزائمهم .

الثاني: أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حث المسلمين يومئذ على الرمي فقال: «**من رمى بسهم في سبيل الله فله درجة في الجنة**» [2] ، فكان في ذلك حافز قوي للمسلمين على التسابق في الرمي للفوز بدرجات عظيمة في الجنة حتى قال أحدهم: بلغت يومئذ ستة عشر سهما ، وكانت تلك السهام الكثيرة ، تنهال على ثقيف كالوابل الغزير فزلزل ذلك كفار ثقيف زلزالا شديدا وحصرهم في حصنهم وشل قدرتهم الدفاعية .

الثالث: ذلك النداء الموجه إلى العبيد الذين يعيشون تحت سيطرة سادات ثقيف " أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر " [3] فما أن بلغهم هذا النداء الإسلامي حتى تسابقوا إلى المسلمين واحدا بعد آخر طلبا للحرية ورغبة في الخلاص من ظلم جبابرة الجاهلية فكانت مكافأتهم على هذه التضحية من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أعتقهم وخلصهم من رق الجاهلية وأغلالها ، وأسلموا وحسن إسلامهم وكان في ذلك إضعاف لشوكة ثقيف وخلخلة لصفوفهم من داخلها ، وكان عدد العبيد الذين نزلوا من حصن الطائف ولحقوا بالمسلمين ثلاثة وعشرين عبدا [4] .

---

(١) البخاري – الصحيح ٨/ ٢٠ ، ابن هشام – السيرة ٢/ ٤٨٦ – ٤٨٧ ، الواقدي – المغازي ٣/ ٩٢٩ – ٩٣٠ .

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ١٣٢ ، رقم ٢٥٦٠) وقال: صحيح على شرط الشيخين . والبيهقي (٩/ ١٦١ ، رقم ١٨٢٩٠) .

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ٢/ ١٥٨ – ١٥٩ .

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ٢/ ١٥٨ – ١٥٩ .

## فك الحصار عن الطائف والعودة إلى الجعرانة:

ثم إن الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر بفك الحصار، والعودة إلي الجعرانة، والسبب في ذلك الوقت يرجع إلي أن الله - جل وعلا - لم يأذن في فتح الطائف حينئذ، فإن خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون قالت له يا رسول الله ما يمنعك أن تنهض إلى أهل الطائف قال لم يؤذن لنا الآن فيهم وما أظن أن نفتحها الآن [1] كما أن الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يدرك أن ثقيفاً ستأتي معلنة إسلامها وولاءها للمسلمين عما قريب بدون مشقة وقتال، ولذا فقد أشار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الصحابة بترك حصار الطائف ولما رأى في أصحابه الرغبة في مواصلة القتال والتصميم على الفتح، أذن لهم في ذلك [2] وقال: اغدوا على

---

(١) السيرة الحلبية، ٣/ ٨١.

(٢) وكان لعمر بن الخطاب دور مهم في الاستجابة لأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بفك والعودة بالجيش، فلما قال أبو محجن بن حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي، وهو على حصن الطائف: يا عبيد محمد، إنكم والله ما لاقيتم أحدا يحسن قتالكم غيرنا، تقيمون ما أقمتم بشر محبس، ثم تنصرفون لم تدركوا شيئا مما تريدون.

نحن قسي وقسا أبونا والله لا نسلم ما حيينا.

وقد بنينا طائفا حصينا.

فناداه عمر: "يا ابن حبيب والله لنقطعن عليك معاشك حتى تخرج من جحرك هذا، إنما أنت ثعلب في جحر يوشك أن يخرج، فقال أبو محجن: إن قطعتم يا ابن الخطاب حبات عنب، فإن في الماء والتراب ما يعيد ذلك". فقال عمر: "لا تقدر أن تخرج إلى ماء ولا تراب، ولن نبرح عن باب جحرك حتى تموت!" قال: يقول أبو بكر: "يا عمر لا تقل هذا، فإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يؤذن له في فتح الطائف، فقال عمر: وهل قال لك هذا رسول الله؟" فقال: نعم، فجاء عمر إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: "لم يؤذن لك يا رسول الله في فتحها؟ قال: "لا". قال: أفلا أؤذن في الناس بالرحيل! قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "بلى" فأذن عمر بالرحيل، فجعل المسلمون يتكلمون، يمشي بعضهم إلى بعض، فقالوا: ننصرف ولا نفتح الطائف!الا نبرح حتى يفتح الله علينا؟ والله إنهم لأذل وأقل من لاقينا قد لقينا جمع مكة وجمع هوازن، ففرق الله تلك الجموع! وإنما هؤلاء ثعلب في جحر، لو حصرناهم لماتوا في حصنهم هذا! وكثر القول بينهم والاختلاف، فمشوا إلى أبي بكر فتكلموا، فقال أبو بكر - رضي الله عنه -: الله ورسوله أعلم، والأمر ينزل عليه من السماء، فكلموا عمر فأبى وقال: قد رأينا الحديبية ودخلني في الحديبية من الشك ما لا يعلمه إلا الله، وراجعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومئذ بكلام ليت أني لم أفعل، وأن أهلي ومالي ذهبا ثم كانت الخيرة لنا من الله فيما صنع، فلم يكن فتح كان خيراً للناس من صلح الحديبية - بلا سيف دخل فيه من أهل الإسلام مثل من كان دخل - من يوم بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى يوم كتب الكتاب، فاتهموا الرأي، والخيرة فيما صنع رسول

القتال، فغدوا فأصابتهم جراحات شديدة من وقع نبال ثقيف فأعاد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقالته في ترك الحصار، ففرح الصحابة بذلك وعلموا أن ما رآه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الصواب، وسارعوا إلى الرحيل، طالبين من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدعو على ثقيف جزاء صنيعهم السيئ ضد المسلمين، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم اهد ثقيفا**» [1].

وقد ذكر ابن كثير الحكمة في تأخير الفتح عامئذ فقال: وكانت الحكمة الإلهية تقتضي أن يؤخر الفتح عامئذ لئلا يستأصلوا قتلا، لأنه قد تقدم أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ لما كان خرج إلى الطائف فدعاهم إلى الله تعالى وإلى أن يؤووه حتى يبلغ رسالة ربه عز وجل وذلك بعد موت عمه أبي طالب، فردوا عليه قوله وكذبوه، فرجع مهموما فلم يستفق إلا عند قرن الثعالب، فإذا هو بغمامة وإذا فيها جبريل فناداه ملك الجبال، فقال: يا محمد إن ربك يقرأ عليك السلام وقد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، فإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بل أستأني بهم، لعل الله أن يخرج من أصلابهم مَنْ يعبده، لا يشرك به شيئاً**». فناسب قوله: "بل أستأني أن لا يفتح حصنهم لئلا يقتلوا عن آخرهم وأن يؤخر الفتح ليقدموا بعد ذلك مسلمين في رمضان من العام المقبل". إهـ [2].

وقد أورد الإمام البخاري رواية صحيحة تدل على أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن يستهدف من غزو الطائف وحصارها تحقيق فتحها، وإنما أراد أن يكسر شوكة ثقيف، ويجعل للمسلمين اليد العليا عليهم في وصولهم إليها ومحاصرتها في عقر دارها حيث عرفها أن بلادها - الطائف - هي في قبضة المسلمين وأنهم سيدخلونها متى شاءوا ذلك، [3] ويظهر أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يرغب في أن يشق على المسلمين ويكثر من تقديم الشهداء منهم لفتح بلدة صغيرة حصينة تحيط بها ديار الإسلام من كل صوب، إذ لم يكن لثقيف رغم عنادها وصمودها إلا الإسلام أو الاستسلام، وإضافة إلى ذلك فقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدرك أن ثقيفا إذا تحولت إلى الإسلام فإنها ستكون مادة له وقوة ومنعة فهم أهل شجاعة

---

الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولن أراجعه في شيء من ذلك الأمر أبدا! والأمر أمر الله وهو يوحي إلى نبيه ما يشاء!. انظر: مغازي الواقدي ٣/ ٩٣٥ - ٩٣٦.

(١) مغازي الواقدي، ٣/ ٩٣٧.

(٢) البداية والنهاية، ٤/ ٤٠٤.

(٣) البخاري، الصحيح ٥/ ١٢٨، ٩/ ١١٣.

وفطنة وذكاء وكان يطمع في إسلامهم ويدعو لهم بالهداية .

نعم إن الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تركهم في آخر الأمر ، لا لعجز عن مناجزتهم ، ولكن رأى أن ثقيفا مآلها الإسلام أو الاستسلام فقد أحيطت بالمسلمين من كل مكان فلماذا يتعرض جيش المسلمين لخسائر كبيرة في حصار مدينة حصينة مآلها إلى السقوط دون أية ضحايا ، طال الوقت أم قصر؟

وهل بوسع الطائف أن تقاوم طويلا وحدها بعد أن دخلت مكة في الإسلام ودانت المناطق من حولها للمسلمين؟

وكيف تصرف إنتاجها الزراعي وكيف تقوم بتجاراتها وكل مواصلاتها مقطوعة؟

## تقسيم الغنائم:

لقد اقترح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أصحابه فك الحصار ، فلما رأى حرصهم على القتال سمح لهم بذلك حتى اقتنعوا بعدم جدوى ذلك ، فلما أعاد عليهم فكرة فك الحصار ثانية أظهروا الرضا بقراره الحكيم ونفذوه وعادوا مرة أخرى إلى الجعرانة حيث خلفوا غنائم حنين قبل أن يتوجهوا إلى الطائف [1] ، وكان النبي قد أخر قسمتها ، كما أنه لم يتعجل في قسمتها بعد عودته مع الجيش سوى شيء قليل من الفضة قسمه عند وصوله [2] ، ثم انتظر بضع عشر ليلة مؤملا قدوم هوازن وإسلامها ولكنه ، حين أبطأت عليه ، بادر إلى تقسيم الغنائم [3] ، حيث قسمها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بصورة خفيت حكمتها على بعض الصحابة آنذاك ، حيث حظي بهذه الغنائم الطلقاء والأعراب تأليفا لقلوبهم لقرب عهدهم بالإسلام ، فأعطى مائة من الإبل لأحد زعماء غطفان ، ومثلها لأحد زعماء تميم ولستة آخرين من زعماء قريش . وقسم أيضا لاثنين وخمسين رجلا ذكرتهم المصادر من المؤلفة قلوبهم [4] ، وقد استمالت هذه القسمة قلوب الزعماء وأتباعهم فاظهروا الرضا بها وزادهم ذلك رغبة في الإسلام ، ثم حسن إسلامهم فأبلوا في الإسلام بلاء

---

(١) البخاري ، الصحيح ٥/ ١٢٨ - ٩/ ١١٣ .

(٢) الحاكم ، المستدرك ٢/ ١٢١ .

(٣) البخاري ، الصحيح - فتح ٨/ ٣٢ .

(٤) ابن هشام ، السيرة ٢/ ٤٩٤ - ٤٩٦ ، الزرقاني ، شرح المواهب اللدنية ٣/ ٣٧ ، ابن حجر ، فتح الباري ٨/ ٤٨ .

حسنا وبذلوا أموالهم وأنفسهم في سبيل الله [1] . وذلك ما عناه أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله: «إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلّا الدنيا ، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها» [2] ، وعبر عن هذا صفوان بن أمية: لقد أعطاني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما أعطاني وأنه لابغض الناس إلي فما برح يعطيني حتى أنه لأحب الناس إلي [3] .

ولقد أوضح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحكمة من وراء تقسيمه الغنائم على تلك الصورة التي كان لها أثر سلبيّ على مشاعر بعض المسلمين الذين لم تشملهم القسمة فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والله إنّي لأعطي الرّجل وأدع الرّجل، والّذي أدع أحبّ إليّ من الّذي أعطي، ولكن أعطي أقواما لما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع، وأكل أقواما إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير**» [4] .

وقال: «**إنّي لأعطي رجالا حدثاء عهد بكفر أتألّفهم**» [5] .

ولقد وجد الأنصار في أنفسهم على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث لم ينلهم ما نال غيرهم من الغنائم ، مع بلائهم الشديد في هذه الغزوة وفي غيرها من معارك الإسلام الفاصلة .

ولقد كانوا – لكثرة عددهم وشدة بأسهم في الحرب – أعمدة أساسية للجيش النبوي في أية معركة ضد أعداء الإسلام ، فهم الذين ناصروا هذا الدين وقام على كواهلهم ، وفتحوا قلوبهم وأبوبهم لكل من جاءهم من إخوانهم المهاجرين الفارين بدينهم ، وناضلوا أشد النضال من أجل إقامة هذا الدين وتثبيت دعائمه .

ولقد سجل الله لهم ذلك في قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [الحشر: ٩] .

---

(١) ابن عبد البر – الاستيعاب ١/ ١٠٣ ، وانظر: ابن سعد – الطبقات ٧/ ٣٧ ، ابن حجر – الإصابة ١/ ٥٨ ، ابن حزم – جوامع السيرة ص ٢٤٨ .

(٢) مسلم – الصحيح ٤/ ١٨٠٦ ، وانظر البخاري – الصحيح ٢/ ١٠٤ ، ٤/ ٧٣ ، ٨/ ٧٩ ، ابن حجر – فتح الباري ٣/ ٣٣٦ .

(٣) مسلم ، كتاب الفضائل (٤/ ١٨٠٦) رقم ٢٣١٣ .

(٤) أخرجه البخارى (١/ ٣١٢ ، رقم ٨٨١) .

(٥) (فتح الباري ٨/ ٥١) .

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤].

فهم أنصار الله وأنصار رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حقا وصدقاً.

ومن هنا لم يكن الرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحرمانه الأنصار من الغنائم يجهل حقهم أو يحط من قدرهم حاشاه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك، وإنما تركهم ثقة منه بقوة إيمانهم وسخاوة نفوسهم، وأعطى الغنائم أناساً يخاف هلعهم وجزعهم ويتألفهم على الإسلام.

ويبدوا أن الأنصار خفي عليهم ما أراده رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من توزيع الغنائم على ذلك النحو، فتأثر حدثاء الأنصار من هذا العطاء بحكم طبيعتهم البشرية، وقالوا: «يعطي قريشا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم»، وقالوا: «إذا كانت الشدة فنحن ندعى، وتعطى الغنائم غيرنا»[1]، فراعى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الاعتراض وعمل على إزالة التوتر وبين لهم الحكمة في تقسيم الغنائم وخاطب الأنصار خطاباً إيمانياً عقلياً عاطفياً وجدانياً مايملك القارئ المسلم على مر الدهور وكر العصور وتوالي الزمان إلا البكاء عندما يمر بهذا الحدث العظيم، فلما دخل سعد بن عباده على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يارسول الله! إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظاما في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحيِّ من الأنصار منها شيء. قال: «**فأين أنت من ذلك ياسعد**» قال: يارسول الله! ما أنا إلا من قومي. قال: «**فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة؟**» قال: فجاء رجال من المهاجرين، فتركهم، فدخلوا، وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا، أتى سعد، فقال: قد اجتمع لك هذا الحيُّ من الأنصار، فأتاهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «**يامعشر الأنصار ماقالة بلغتني**

---

(١) نقل ابن هشام أنه لما أعطى رسول اللّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما أعطى في قريش وقبائل العرب، ولم يعط الأنصار شيئا، قال حسان بن ثابت يعاتبه في ذلك في قصيدة أوردها (السيرة ٣/ ٤٩٧) ورد فيها قوله:

وأت الرسول وقل يا خير مؤتمن ::: قدام قوم هم آووا وهم نصروا
علام تدعى سليما وهي نازحة ::: للمؤمنين إذا ما عدّل البشر
سماهم اللّه أنصارا بنصرهم ::: دين الهدي وعوان الحرب تستعر

وهي قصيدة تقع في ثلاثة عشر بيتا.

**عنكم، وجدة وجدتموها في أنفسكم، ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟»** قالوا: الله ورسوله أمن وأفضل. ثم قال: **«ألا تجيبوني يامعشر الأنصار؟»** قالوا: بماذا نجيبك يارسول الله، لله ولرسوله المن والفضل. قال: **«أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصُدِّقتم: أتيتنا مكذبا فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فأويناك، وعائلاً فآسيناك، أوجدتم عليَّ يامعشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، إلا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشَّاء والبعير، وترجعون برسول الله إلى رحالكم فوالذي نفس محمد بيده لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به، ولولا الهجرة، لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً ووادياً، وسلكت الأنصار شِعْباً ووادياً لسلكت شعب الأنصار ووديها، الأنصار شعار والناس دثار[1]، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار»**[2]، قال فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا رضينا برسول الله قسما وحظا، ثم انصرف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتفرقوا[3].

إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضرب للأنصار صورة مؤثرة: قوم يبشرون بالإيمان يقابلهم قوم يبشرون بالجمال، وقوم يصحبهم رسول الله يقابلهم قوم يصحبهم الشاه والبعير، لقد أيقظتهم تلك الصور وأدركوا أنهم وقعوا في خطأ ما كان لأمثالهم أن يقع فيه، فنطلقت حناجرهم بالبكاء ومآقيهم بالدموع وألسنتهم بالرضا، وبذلك طابت نفوسهم واطمأنت قلوبهم بفضل سياسة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحكيمة في مخاطبة الأنصار[4].

**ومن خلال موقف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قضية توزيع الغنائم يتضح لنا حقيقتان:**

الأولى: دقة نظر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعمق معرفته بدخائل النفوس البشرية وما يقوم اعوجاجها، حيث أعطى تلك العطايا السخية ومنح تلك المنح الهائلة لأناس يعادونه، وكفار لم يدخلوا في دين الله بعد وآخرين يتألف بهم

(١) الشعار: الثوب الذي يلي الجسد، والدثار فوقه، ومعنى الحديث: أن الأنصار هم البطانة والخاصة.

(٢) بالشاء: أي الشياه وهي الأغنام.

(٣) السيرة النبوية، ٣/ ٥٠٠.

(٤) المجتمع المدني في عهد النبوة، ص٢١٩.

قومهم لعلهم يهتدون ويسلمون، وكانت النتيجة التي توخها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من تخصيص هؤلاء الذين تألفهم بهذه العطايا أن أسلموا وحسن إسلامهم وكانوا جنودا صادقين في الدفاع عن الإسلام والانخراط في سلك المهاجرين والأنصار الذين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ورضوا عنه.

وعلى وجه الإيجاز كانت تلك الأعطيات بردا وسلاما على نفوس أولئك النفر وشفاء لما في صدورهم من مرض الضلال وحب المادة وقد عبروا أنفسهم عن هذا الإحساس وهذا التحول النفسي الخطير حين قال بعضهم "أعطاني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم حنين، وإنه لأبغض الخلق إلي، فما زال يعطيني حتى إنه لحب الخلق إلي" وكفى بهذه النتيجة العظيمة دليلا على حسن ذلك التقسيم للغنائم، وأنه واقع موقعه، وكيف لا يكون كذلك وهو عمل المعصوم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

الحقيقة الثانية: في هذه الغزوة تجلت قوة إيمان أصحاب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وثباتهم العظيم أمام مغريات المادة وأنهم كانوا كما قيل "يقلون عند الطمع ويكثرون عند الفزع"[1].

بل إنهم أعظم من هذا بكثير كانت غايتهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الدفاع عن دينه ونشر الحق، ولم تكن المادة مسيطرة على نفوسهم ولا باعثة لهم على الجهاد كما يزعم ذلك أعداء الله من المستشرقين وأذنابهم، وهذا الموقف العظيم لهم من أعظم الأدلة على طهارة نفوسهم ووضوح هدفهم ونبل مقاصدهم في جهادهم في سبيل الله، ولقد رباهم الرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التربية الإسلامية الكاملة في معناها، ووثق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من إيمانهم ووكلهم إلى هذا الإيمان، وما كان تساؤلهم في مبدأ توزيع الغنائم ولا تعجبهم من ذلك التقسيم لها إلا بسبب خفاء الحكمة عليهم في ذلك حتى بين لهم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحكمة من ذلك فرضوا وسلموا له تسليما ولم يبق في نفوسهم حرج ولا ميل عن الحق، بل كانوا مغتبطين بما أوضحه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم من أنه وكلهم إلى ما في قلوبهم من الغنى والخير والإيمان واليقين[2].

---

(١) ذكر ذلك الجاحظ: "فمن كلامه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين ذكر الأنصار فقال: "أما والله ما علمتكم إلا لتقلون عند الطمع وتكثرون عند الفزع". البيان والتبيين، ٢/ ٤٥.

(٢) مرويات غزوة حنين وحصار الطائف، ١ / ٤٠٢.

## جفاء وغلظة الأعراب وتصرفاتهم أثناء توزيعه الغنائم:

وتحدثت المصادر عن نماذج من جفاء وغلظة الأعراب وتصرفاتهم الصلفة وغير المنضبطة مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أثناء توزيعه الغنائم، كما تحدثت عن قوة تحمله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصبره الكبير على جفاء الأعراب وطمعهم في الأموال وحرصهم على المكاسب، وإدراكه لأحوالهم وما جبلوا عليه من قساوة وفظاظة وأنانية، وقد طمأنهم على مصالحهم وعاملهم على قدر عقولهم وكان بهم رحيما ولهم مربيا ومصلحا.

فلما قرر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العودة إلى الجعرانة فوصلها ليلة الخميس لخمس ليال خلون من ذي القعدة، وأقام بها ثلاث عشرة ليلة ينتظر هوازن لعلها أن تقدم مسلمة فيرد إليها سبيها وأموالها، ولما لم تقدم في هذه المدة، شرع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في توزيع الغنائم حسب ما تقتضيه المصلحة العامة، فوضعها في موضعها اللائق بها، غير أن بعض أهل الزيغ والنفاق عباد الدينار والدرهم انتقد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صنيعه هذا ونسبه إلى الجور والظلم فخاطب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلهجة قاسية تنبئ عما انطوت عليه نفسه من الحقد والغل والبعد عن هدي الإسلام وتعاليمه السامية "يا محمد اعدل" فتألم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك وغضب غضبا شديدا حتى طلب عمر بن الخطاب الإذن منه في قتل هذا المنافق الخبيث، ولكن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منعه من ذلك وقال: «**معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي**»[1]. ذلك أن هذا القائل معدود في الصحابة وله شيعة وأتباع، فالحكمة تقتضي عدم قتله وأن يتركه وما تولى.

ومن المواقف التي تدل علي غلظة وجفاء الأعراب ماورد عن أبو موسى الأشعري حيث قال: كنت عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو نازل بالجعرانة بين مكة والمدينة ومعه بلال، فأتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعرابي فقال: ألا تنجز لي ماوعدتني؟ فقال له: «**أبشر**» فقال: قد أكثرت علي من أبشر. فأقبل على أبي موسى وبلال كهيئة الغضبان، فقال: «**رد البشرى، فاقبلا أنتما**»، قالا: قبلنا. ثم دعا بقدح فيه ماء فغسل يديه ووجهه فيه، ومج فيه ثم قال: «**اشربا منه، وأفرغا على وجوهكما ونحوركما وأبشرا**»، فأخذا القدح ففعلا، فنادت أم سلمة من

(١) النسائي في سننه الكبرى ج ٥/ ص ٣١ حديث رقم: ٨٠٨٧، الطبراني في معجمه الأوسط ج ٩/ ص ٣٤ حديث رقم: ٩٠٦٠.

وراء الستر أن أفضلا لأمكما ، فأفضلا لها منه طائفة[1] .

وقال عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: . . . فلما كان يوم حنين آثر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ناساً في القسمة ، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل ، وأعطى عيينة مثل ذلك ، وأعطى أناساً من أشراف العرب ، وآثرهم يومئذ في القسمة . فقال رجل: والله إن هذه القسمة ماعدل فيها ، وما أريد فيها وجه الله . قال: فقلت والله! لأخبرن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قال: فأتيته ، فأخبرته بما قال ، قال: فتغير وجهه حتى كان كالصرف . ثم قال: «**فمن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله**» قال: ثم قال: «**يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر**» قال: قلت: لاجرم لا أرفع إليه بعدها حديثاً[2] .

لقد عرف الأعراب بالجشع والحرص على أتفه متاع الدنيا مع الغلظة وشراسة الطبع والجفاء ، لبعدهم عن مواطن الوعي الاجتماعي وتحررهم من قيود النظام وقوانين الحضارة الإنسانية ، فالأعراب قوم من العرب يعيشون في البوادي ويتتبعون مواقع القطر وأماكن الخصب ، ولا تجمعهم قرية ولا يحكمهم قانون ولا يخضعون لسلطان وقد سجل القرآن على هؤلاء الأعراب أشد الكفر والنفاق وأسوأ الجهل والفظاظة الأمر الذي يؤدي إلى كل تصرف وحشي وكل قول غليظ جاف .

قال تعالى: ﴿ **الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ واللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [التوبة: آية ٩٧ ، ٩٨] .

وتاريخ الأعراب في الجاهلية حافل بالهمجية والفوضى وما يتبع من تصرفات نادة عن الذوق والوعي والمسئولية .

والإسلام جاء ليستنقذ هؤلاء التعساء وغيرهم من الظلمات الجاهلية إلى نور الإيمان ، وقد استمرت الدعوة الإسلامية في طريقها لتخليص هذه النفوس المأفونة من رق الكفر وأغلال الجاهلية فأقبل على هذه الدعوة المحمدية من علم الله فيه الخير فتحرر من تقاليد الجاهلية وانحرافها في الفكر والسلوك في العقيدة والعمل بيد أنّ كثيراً من هؤلاء الجاهليّين ظل شاكاً في حقيقة الدعوة الإسلامية يتربص بها

(١) البخاري ، كتاب المغازي رقم ٤٣٢٨ .
(٢) مسلم ، كتاب الزكاة ، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم حديث ١٠٦٢ .

الدوائر يخرج مع المسلمين لا حباً في نصر الدين وإنما للحصول على الغنائم ويبدوا أن فرار الأعراب يوم حنين لا يبعد أن يكون من دوافعه ريب في قلوبهم وشك في إيمانهم، على أنهم ليسوا على درجة واحدة في ذلك.

## قدوم وفد هوازن إلى الجعرانة مسلمين:

وبعد قسمة الغنائم جاء وفد هوازن لرسول الله بالجعرانة وقد أسلموا فقالوا يارسول الله إنا أصل وعشيرة [1] وقد أصابنا من البلاء مالم يخف عليك فامنن علينا منّ الله عليك وقام خطيبهم زهير بن صرد أبو صرد فقال: يارسول الله إنما في الحظائر من السبايا خالاتك وحواضنك [2] اللاتي كن يكفلنك ولو أنا ملحنا [3] لابن أبي شمر أو النعمان بن المنذر [4]. ثم أصابنا منها مثل الذي أصابنا منك رجونا عائدتهما وعطفهما وأنت رسول الله خير المكفولين ثم أنشأ يقول:

أُمنُنْ علينا رسول الله في كرم ::: فإنك المرءُ نرجوه وننتظر [5]

إلى أن قال:

امنن على نسوة قد كنت ترضعها ::: إذ فوك يملؤه من محضها دَرَر
فاعفو عفا الله عما أنت راهبه ::: وإذ يزينك ماتأتي وما تذر
إنا نؤمل عفوا منك تلبسه ::: من أمهاتك إن العفو مشتهر [6]
يا خير من مرحت [1] كمت [2] الجياد له ::: عند الهياج [7] إذا ما استوقد الشرر
فألبس العفو من قد كنت ترضعه ::: هذى البرية إذ تعفو وتنتصر [8]
امنن على نسوة قد كنت ترضعها ::: يوم القيامة إذ يهدى لك الظفر [9]

---

(١) العشيرة: الأهل أو القبيلة.
(٢) حواضنك: النساء اللاتي أرضعنك، فحاضنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بني سعد بن بكر وهم من هوازن.
(٣) ملحنا: وفي رواية مالحنا، يعني أرضعنا، وابن أبي شمر هو الحارث الغساني ملك الغساسنة.
(٤) البداية والنهاية (٤/ ٣٥٢).
(٥) البداية والنهاية (٤/ ٣٥٢).
(٦) إن العفو مشتهر: أي حسنه بين الناس.
(٧) الهياج: القتال.
(٨) هذى البرية: إشارة للنسوة التي طلب العفو عنهن.
(٩) البداية والنهاية (٤/ ٣٦٣، ٣٦٤). ابن عبد البر في الاستيعاب ١/ ٥٧٥ - ٥٧٧، المعجم الصغير: ١/ ٢٣٦ - ٢٣٧. والكبير: ٥/ ٣١١ - ٣١٢. والأوسط ٢/ ٢٤٤ رقم ٧٧ "مجمع البحرين" ٦. تاريخ بغداد: للخطيب البغدادي ٧/ ١٠٥ - ١٠٦.

فجمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسلمين وخطب فيهم، وقال: «**إنه يريد أن يرد السبي لهوازن، فمن أحبّ منكم أن يطيب** [٣] **ذلك فليفعل، ومن أحبّ أن يكون على حظّه حتّى نعطيه إيّاه من أوّل ما يفيء الله** [٤] **علينا فليفعل**»، ورغم أن المسلمين نادوا: «طيبنا [٥] يا رسول الله لهم»، فإنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لهم: «**إنّا لا ندري من أذن منكم فيه ممّن لم يأذن، فارجعوا حتّى يرفع إلينا عرفاؤكم** [٦] **أمركم**»، فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأخبروه أنهم طيبوا [٧] وأذنوا [٨].

ولقد كان إسلام هوازن نصرا آخر كتبه الله للمسلمين سرّ به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسألهم عن زعيمهم مالك بن عوف ووعدهم برد أهله وأمواله عليه وبإكرامه بمائة من الإبل إن قدم عليه مسلما، فجاء مالك مسلمًا فأكرمه وأمّره على قومه وبعض القبائل المجاورة. لقد تأثر مالك بن عوف وجادت قريحته لمدح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال:

**في الناس كلهم بمثل محمد ::: ما إن رأيت ولا سمعت بمثله**

---

(١) مرحت: نشطت.

(٢) كميت: جمع كميت من الخيل بين الأسود والأحمر.

(٣) يطيب: والمعنى فمن أحب منكم أن يعطيه عن طيب نفس منه من غير عوض فليفعل. وقال السهيلي: "عوض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من لم تطب نفسه بالرد مما كان بيده واستطاب نفوس الباقين، وذلك أن المقاسم كانت قد وقعت فيهم فلا يجوز للإمام أن يمن على الأسرى بعد القسم، ويجوز له ذلك قبل المقاسم، كما فعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأهل خيبر حين من عليهم، وتركهم عمالا للمسلمين في أرضهم التي افتتحوها عنوة" (الروض الأنف ٧/ ٢٨١).

(٤) يفيء: أي يرجع إلينا من مال الكفار من خراج أو غنيمة أو غير ذلك، ولم يرد الفيء الاصطلاحي وحده (فتح الباري ٥/ ١٧٨).
وقال ابن الأثير: "أراد بما يفيئه الله عليه: الخمس الذي جعله الله له من الفيء خاصة دون الناس، فإنه يعطي كل من أخذ منه شيئاً عوضه من ذلك". (جامع الأصول ٨/ ٤٠٩).

(٥) طيبنا: أي رضينا بذلك.

(٦) عرفاؤكم: وهو القائم بأمر طائفة من الناس، يلي أمورهم ويتعرف أحوالهم، سمي بذلك لكونه يتعرف أمورهم حتى يعرف بها من فوقه عند الاحتياج.

(٧) طيبوا: بفتح الطاء المهملة وتشديد التحتانية، أي حملوا أنفسهم على ترك السبايا حتى طابت بذلك، يقال طيبت نفسي بكذا إذا حملتها على السماح به من غير إكراه فطابت بذلك.

(٨) البخاري - الصحيح ٣/ ٨٧، ١٥٦.

وسـط الهـباءة[٣] خادر[٤] في مرصد ::: أوفى وأعطـى للجـزيل إذا اجـتدى
بالـسمهري وضـرب كـل مهـند ::: وإذا الكتيـبة عـردت[١] أنـيابها
ومـتى تـشاء يخـبر عمـا في غـد ::: فكأنـه لـيث علـى أشـباله[٢]

وقـد أسلم بعد ذلك بعض زعماء ثقيف أمثال عروة بن مسعود الثقفي الذي لحق بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في طريق المدينة فأسلم على يديه وعاد إلى الطائف يدعو إلى الإسـلام، ويـؤذن مـن على سطح منزله فرماه بعض المشركين فأصابه، ودفن بناء على وصيته مع شهداء المسلمين أثناء حصار الطائف [٥].

## إسلام هوازن:

ثـم إن ثقيفا أقامت بعد قتل عروة بن مسعود أشهرا تشاوروا فيما بينهم على نـبذ الخلافات التي كانت بينهم، وعلى أن يتحدوا جميعا على أمر يأمنون فيه على أنفسهم وأمـوالهم وذلـك بأن يبعثوا وفدا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للتفاوض معـه علـى الدخـول في الإسلام، وذلك أنهم تيقنوا أن لا طاقة لهم بحرب القبائل مـن حـولهم وقـد أسـلمت وبايعت، وأخذ أمر الإسلام يعلو يوما بعد يوم، وأن دولة الأصنام قد أخذت طريقها في الأفول".

قـال ابـن إسـحاق: "ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهرا، ثم إنهم ائتمروا بينهم، ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا".

فقـد روي أن عمـرو بـن أمـية أخـا بـني عـلاج، كان مهاجرا لعبد بن عمرو (لـشيء كـان بيـنهم) - وكـان عمـرو بن أمية من أدهى العرب - فمشى إلى عبد يالـيل ابـن عمـرو، حتـى دخل داره، ثم أرسل إليه أن عمرو بن أمية يقول لك: "اخرج إلي، قال: "فقال عبد ياليل للرسول ويك! أعمرو أرسلك إلي؟".

قـال: "نعـم، وها هو واقفا في دارك[٦]، فقال: "إن هذا لشيء ما كنت أظنه،

---

(١) عردت: اشتدت وضربت، القاموس المحيط (١/ ٣١٣).
(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٤٤).
(٣) الهباءة: غبار الحرب، مختار الصحاح، ص٦٨٩.
(٤) الخادر: المقيم في عرينه، والخدر ستر يمد للجارية من ناحية البيت.
(٥) ابن هشام - السيرة ٢/ ٥٣٧ - ٨، ابن كثير - البداية والنهاية ٥/ ٢٩.
(٦) عـند الـواقدي: "وكان عبد ياليل يحب صلحه ويكره أن يمشي إليه فقال عبد ياليل: "إن هذا شـيء مـا كـنت أظـنه بعمرو، وما هو إلا عن أمر قد حدث وكان أمرا سوءا ما لم يكن من ناحية محمد".

لعمرو كان أمنع في نفسه من ذلك، فخرج إليه، فلما رآه رحب به فقال له عمرو: "إنه قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة، إنه كان من أمر هذا الرجل[1] ما قد رأيت، قد أسلمت العرب كلها[2]، وليست لكم بحربهم طاقة، فانظروا في أمركم".

فعند ذلك ائتمرت ثقيف بينهما، وقال بعضهم لبعض: "أفلا ترون أنه لا يأمن لكم سرب[3]، ولا يخرج منكم أحد إلا اقتطع، فأتمروا بينهم، وأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلا، كما أرسلوا عروة فكلموا عبد ياليل بن عمرو بن عمير، وكان في سن عروة بن مسعود، وعرضوا ذلك عليه، فأبى أن يفعل، وخشي أن يصنع به إذا رجع كما صنع بعروة، فقال: "لست فاعلا حتى ترسلوا معي رجالا فأجمعوا أن يبعثوا معه رجلين من الأحلاف، وثلاثة من بني مالك فيكونوا ستة، فبعثوا مع عبد ياليل: "الحكم بن عمرو بن وهب بن معتب، وشرحبيل بن غيلان بن سلمة ابن معتب".

ومن بني مالك: "عثمان بن أبي العاص بن بشر بن عبد دهمان، أخا بني يسار، وأوس بن عوف، أخا بني سالم بن عوف ونمير بن خرشة بن ربيعة أخا بني الحارث فخرج بهم عبد ياليل وهو ناب[4] القوم وصاحب أمرهم، ولم يخرج بهم إلا خشية من مثل ما صنع بعروة ابن مسعود، لكي يشغل كل رجل منهم إذا رجعوا إلى الطائف رهطه، فلما دنوا إلى المدينة، ونزلوا قناة[5]، ألفوا بها المغيرة بن شعبة، يرعى في نوبته ركاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، - وكانت رعيتها نوبا على أصحابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلما رآهم ترك الركاب عند الثقفيّين، وضبر[6] يشتد يبشر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقدومهم عليه، فلقيه أبو بكر الصديق قبل أن

---

(١) يريد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٢) عند الواقدي: "وقد أسلمت العرب كلها وليست لكم بهم طاقة، وإنما نحن في حصننا هذا، ما بقاؤنا فيه وهذه أطرافنا تصاب! ولا نأمل من أحد منا يخرج شبرا واحدا من حصننا هذا، فانظروا في أمركم! قال عبد ياليل: "قد والله رأيت ما رأيت، فما استطعت أن أتقدم بالذي تقدمت به، وإن الحزم والرأي الذي في يديك" (المغازي ٣/ ٩٦٢).

(٣) السرب: المسلك والطريق. "النهاية، ج٢، ص١٥٥".

(٤) ناب القوم: "سيدهم (القاموس المحيط ١/ ١٣٥).

(٥) قناة: "بالفتح واد بالمدينة يأتي من الطائف ويمر بالعاقول ثم يمضي شمالا في موازاة الحرة، ثم يمر بقبور الشهداء جنوب جبل أحد". معجم البلدان ٤/ ٤٠١ والمدينة بين الماضي والحاضر للعياشي ص ٤٩٠".

(٦) ضبر الفرس والمقيد يضبر ضبرا وضبرانا جمع قوائمه ووثب". القاموس المحيط٢/ ٧٤.

يدخل على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فأخبره عن ركب ثقيف أن قد قدموا يريدون البيعة والإسلام ، بأن يشرط لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شروطا ويكتبوا من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتابا في قومهم وبلادهم وأموالهم ، فقال أبو بكر للمغيرة: "أقسمت عليك بالله لا تسبقني إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى أكون أنا أحدثه[1] ، ففعل المغيرة ، فدخل أبو بكر على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فأخبره بقدومهم عليه ، ثم خرج المغيرة إلى أصحابه ، فروح الظهر معهم ، وعلمهم كيف يحيون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فلم يفعلوا إلا بتحية الجاهلية[2] ، ولما قدموا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضرب عليهم قبة في ناحية مسجده[3] ، كما يزعمون".

فكان خالد بن سعيد بن العاص ، هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى اكتتبوا كتابهم ، وكان خالد هو الذي كتب كتابهم ، وكان

---

(١) وعند الواقدي "فقال أبو بكر: "أقسمت بالله عليك لا تسبقني إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخبرهم حتى أكون أنا أخبره - وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد ذكرهم ببعض الذكر - فأبشره بمقدمهم ، فدخل أبو بكر رضي الله عنه على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبره ، والمغيرة على الباب ، ثم خرج إلى المغيرة فدخل المغيرة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو مسرور ، فقال يا رسول الله ، قدم قومي يريدون الدخول في الإسلام بأن تشرط لهم شروطا ، ويكتبون كتابا على من وراءهم من قومهم وبلادهم ، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لا يسألون شرطا ولا كتابا أعطيته أحدا من الناس إلا أعطيتهم فبشرهم! فخرج المغيرة راجعا فخبرهم ما قال لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبشرهم".

(٢) وعند الواقدي "فكل ما أمرهم المغيرة فعلوا إلا التحية ، فإنهم قالوا: "أنعم صباحا ودخلوا المسجد فقال الناس: "يا رسول الله ، يدخلون المسجد وهم مشركون؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إن الأرض لا ينجسها شيء".

(٣) وفي زاد المعاد نقلا عن موسى بن عقبة فقال المغيرة بن شعبة: "يا رسول الله أنزل قومي علي فأكرمهم ، فإني حديث الجرح فيهم ، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لا أمنعك أن تكرم قومك ، ولكن أنزلهم حيث يسمعون القرآن" وكان من جرح المغيرة في قومه أنه كان أجير الثقيف ، وأنهم أقبلوا من مصر حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، عدا عليهم وهم نيام ، فقتلهم ثم أقبل بأموالهم حتى أتى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أما الإسلام فنقبل ، وأما المال فلا فإنا لا نغدر" وأبى أن يخمس ما معه ، وأنزل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفد ثقيف في المسجد ، وبنى لهم خياما لكي يسمعوا القرآن ، ويروا الناس إذا صلوا ، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا خطب لا يذكر نفسه ، فلما سمعه وفد ثقيف ، قالوا: "يأمرنا أن نشهد أنه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولا يشهد به في خطبته ، فلما بلغه قولهم ، قال: "فإني أول من شهد أني رسول الله" (زاد المعاد ٣/ ٥٩٦).

خالد هو الذي كتب كتابهم بيده، وكانوا لا يطعمون طعاما يأتيهم من عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى يأكل منه خالد حتى أسلموا وفرغوا من كتابهم، وقد كان فيما سألوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدع لهم الطاغية، وهي اللات[1] لا يهدمها ثلاث سنين، فأبى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك عليهم فما برحوا يسألونه سنة سنة، ويأبى عليهم، حتى سألوا شهرا واحد بعد مقدمهم، فأبى أن يدعها شيء مسمى، وإنما يريدون بذلك فيما يظهرون أن يتسلموا بتركها من سفائهم ونسائهم وذراريهم ويكرهون أن يروعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام، فأبى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فيهدماها، وقد كانوا سألوه مع ترك الطاغية أن يعفيهم من الصلاة، وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه**[2]، **وأما الصلاة فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه**»، فقالوا:

---

(١) اللات: "كانت اللات صخرة بيضاء منقوشة عليها بيت بالطائف له أستار وسدنة، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تبعها يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش".
قال ابن جرير: "وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله، فقالوا: "اللات يعنون مؤنثة منه تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا".
وحكي عن ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس أنهم قرءوا اللات: "بتشديد التاء وفسروه بأنه كان رجلا يلت للحجيج في الجاهلية السويق فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه". (تفسير بن كثير ٤/ ٢٥٣و٢٥٤)".

(٢) وعند ابن قيم الجوزية: "فقال كنانة بن عبد ياليل لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "هل أنت مقاضينا حتى نرجع إلى قومنا؟".
قال: "نعم، أن انتم أقررتم بالإسلام أقاضيكم، وإلا فلا قضية ولا صلح بيني وبينكم"، وأنه سأل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يرخص لهم الزنى، والربا والخمر، "فأبى عليهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".
وقال: "هي عليكم حرام وتلا الآيات الواردة في ذلك فارتفع القوم فخلا بعضهم ببعض، فقالوا: "ويحكم إنا نخاف إن خالفناه يوما كيوم مكة، انطلقوا نكاتبه على ما سألناه، فأتوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالوا: "نعم لك ما سألت، أرأيت الربة - يعنون اللات - ماذا نصنع فيها؟.
قال: "اهدموها" قالوا: "هيهات لو تعلم الربة أنك تريد هدمها لقتلت أهلها، فقال عمر بن الخطاب: "ويحك يا ابن عبد ياليل، ما أجهلك إنما الربة حجر، فقالوا: "إنا لم نأتك يا ابن الخطاب، وقالوا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "تول أنت هدمها، فأما نحن فإنا لا نهدمها أبدا، قال: "فسأبعث إليكم من يكفيكم هدمها" فكاتبوه (انظر زاد المعاد ٣/ ٥٩٦ - ٥٩٧)، ومغازي الواقدي (٣/ ٩٦٦ - ٩٦٧).

"يا محمد، فسنؤتيكها، وإن كانت دناءة[1]".

فلما أسلموا وكتب لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتابهم، أمر عليهم عثمان بن أبي العاص، وكان من أحدثهم سنا، وذلك كان أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن[2]، فقال أبو بكر لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يا رسول الله، إني قد رأيت هذا الغلام منهم من أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن"[3].

## هدم اللات:

قال ابن إسحاق: "فلما فرغوا من أمرهم، وتوجهوا إلى بلادهم راجعين بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معهم أبا سفيان بن حرب، والمغيرة بن شعبة في هدم الطاغية فخرجا مع القوم، حتى إذا قدموا الطائف أراد المغيرة بن شعبة أن يقدم أبا سفيان، فأبى ذلك أبو سفيان عليه، وقال: "ادخل أنت على قومك، وأقام أبو سفيان بما له بذي الهدم[4]، فلما دخل المغيرة بن شعبة، علاها يضربها بالمعول[5]، وقام قومه دونه - بنو متعب - خشية أن يرمى أو يصاب كما أصيب عروة، وخرج نساء ثقيف حسرا[6] يبكين عليها ويقلن:

---

(١) عند الواقدي: "فقالوا: "يا محمد، أما الصلاة فسنصلي، وأما الصيام فسنصوم، وتعلموا فرائض الإسلام وشرائعه".

(٢) وذكر موسى بن عقبة "أن وفدهم كانوا إذا أتو رسول الله خلفوا عثمان ابن أبي العاص في رحالهم فإذا رجعوا وسط النهار جاء هو إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسأله عن العلم فاستقراه القرآن، فإن وجده نائما، ذهب إلى أبي بكر الصديق فلم يزل دأبه حتى فقه في الإسلام وأحبه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حبا شديدا (زاد المعاد ٣/ ٥٩٦، والبداية والنهاية ٥/ ٣١) والطبقات الكبرى لابن سعد ٥/ ٥٠٨).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٥٣٨ - ٥٤٠، الورض الأنف ٧/ ٣٣٢ - ٣٣٥، وزاد المعاد ٣/ ٥٩٥ - ٥٩٧، والبداية والنهاية ٥/ ٢٩ - ٣١ وتاريخ الخميس٢/ ١٣٤ - ١٣٦، وشرح المواهب ٤/ ٦ - ٨ والطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٣١٢ - ٣١٤ و٥/ ٥٠٨ ومغازي الواقدي ٣/ ٩٦٠ - ٩٦٨).

(٤) بذي الهرم: محل بالطائف (شرح المواهب ٤/ ٩) وكذا في البداية والنهاية لابن كثير ٥/ ٣٣".

(٥) المعول: الفأس العظيمة يقطع بها الصخر، والجمع معاول (مختار الصحاح ص ٤٦٣).

(٦) حسر: أي متكشفات". وعند موسى ابن عقبة "وقد استكفت ثقيف رجالها ونساءها والصبيان حتى خرج العواتق من الحجال، ولا يرى عامة ثقيف أنها مهدومة، ويظنون أنها ممتنعة، فقام المغيرة بن شعبة فأخذ الكرزين - يعني المعول - وقال لأصحابه: "والله لأضحكنكم من ثقيف، فضرب بالكرزين ثم سقط يركض برجله، فارتج أهل الطائف

لتبكين دفاع[٢] ::: أسلمها الرضاع[١]
لم يحسنوا المصاع[٣]

قال ابن إسحاق: "ويقول أبو سفيان - والمغيرة يضربها بالفأس: "وآهالك آهالك[٤] فلما هدمها المغيرة، وأخذ مالها وحليها[٥] أرسل إلى أبي سفيان وحليها مجموعة ومالها من الذهب والجزع[٦]، وقد كان أبو مليح بن عروة وقارب بن الأسود قدما على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل وفد ثقيف، حين قتل عروة، يريدان فراق ثقيف وأن لا يجامعاهم على شيء أبدا فأسلما، فقال لهما رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تولّيا ما شئتما؟**» فقالا: "نتولى الله ورسوله، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وخالكما أبا سفيان بن حرب**»، فقالا: "وخالنا أبا سفيان بن حرب".

فلما أسلم أهل الطائف ووجه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا سفيان والمغيرة إلى هدم الطاغية، سأل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبو مليح بن عروة أن يقضي عن أبيه عروة دينا كان عليه من مال الطاغية، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نعم**»، فقال له قارب بن الأسود: "وعن الأسود يا رسول الله، فاقضه - وعروة والأسود أخوان لأب وأم - فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الأسود مات مشركا**»،

---

بصيحة واحدة وفرحوا وقالوا أبعد الله المغيرة قتلته الربة وقالوا لأولئك من شاء منكم فليقترب، فقام المغيرة فقال: "والله يا معشر ثقيف إنما هي لكاع حجارة ومدر، فاقبلوا عافية الله فاعبدوه، ثم إنه ضرب الباب فكسره، ثم علا سورها وعلا الرجال معه فما زالوا يهدمونها حجراً حجرا حتى سووها بالأرض وجعل سادنها يقول: "ليغضبن الأساس فليخسفن بهم، فلما سمع المغيرة قال لخالد: "دعني أحفر أساسها فحفروه حتى أخرجوا ترابها وجمعوا ماءها وبناءها، وبهتت عند ذلك ثقيف، ثم رجعوا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقسم أموالها من يومه وحمدوا الله على اعتزاز دينه ونصرة رسوله: "(البداية والنهاية ٥/ ٣٣ - ٣٤، وشرح المواهب ٤/ ٩).

(١) الرضاع: اللئام، القاموس المحيط ٣/ ٣٠.

(٢) سميت "دفاع" لأنها كانت تدفع عنهم، وتنفع وتضر على زعمهم، القاموس المحيط ٣/ ٢١.

(٣) المصاع: "المضاربة بالسيوف، القاموس المحيط ٣/ ٨٥.

(٤) آهالك: "كلمة تقال في معنى التأسف والتحزن (مختار الصحاح ص ٣٤).

(٥) حليها: "بضم الحاء وكسر اللام والياء المشددة، جمع حلى بفتح فسكون، عطف خاص على عام (شرح المواهب ٤/ ٩).

(٦) الجَزْع والجِزْع: "الخرز اليماني الصيني، فيه سواد وبياض تشبه به الأعين (القاموس المحيط ٣/ ١٢).

فقال قارب لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يا رسول الله، لكن تصل مسلما ذا قرابة، يعني نفسه، إنما الدين علي، وإنما أن الذي أطلب به، فأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا سفيان أن يقضي دين عروة والأسود من مال الطاغية، فلما جمع المغيرة مالها، قال لأبي سفيان إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أمرك أن تقضي عن عروة والأسود دينهما فقضى عنهما"[1]".

## كتاب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لثقيف:

قال ابن إسحاق: "وكان كتاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي كتب لهم: بسم الله الرحمن الرحيم: "من محمد النبي، رسول الله، إلى المؤمنين: "عن عضاه[2] وج[3] وصيده لا يعضد، من وجد يفعل شيئا من ذلك فإنه يجلد وتنزع ثيابه، فإن تعدى ذلك فإنه يؤخذ فيبلغ به إلى النبي محمد، وإن هذا أمر النبي محمّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكتب خالد بن سعيد: "بأمر الرسول محمّد بن عبد الله، فلا يتعداه أحد، فيظلم نفسه فيما أمر به محمد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"[4].

## الأحكام الفقهية من إسلام وهوازن وهدم اللات:

قال الإمام ابن القيم:

- وفي قصة هذا الوفد من الفقه أن الرجل من أهل الحرب إذا غدر بقومه وأخذ أموالهم، ثم قدم مسلما، لم يتعرض له الإمام، ولا لما أخذه من المال ولا يضمن ما أتلفه قبل مجيئه من نفس ولا مال، كما لم يتعرض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أخذ المغيرة من أموال الثقفيّين، ولا ضمن أتلفه عليهم، وقال "أما الإسلام فأقبل، أما المال فلست منه في شيء[5]".

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٤١ - ٥٤٢ والروض الأنف ٧/ ٣٣٦ - ٣٣٧ وتاريخ الطبري ٣/ ٩٩ - ١٠٠ وأسد الغابة ٤/ ٣٧٥ - ٣٧٦ و٦/ ٢٩٩ والبداية والنهاية ٥/ ٣٢ - ٣٤ والإصابة ٣/ ٢١٩ و٤/ ١٨٤ ومغازي الواقدي ٣/ ٩٦٩ - ٩٧٣ والطبقات الكبرى لابن سعد ٥/ ٥٠٤ - ٥٠٥"، مرويات غزوة حنين وحصار الطائف، ٢ / ٥٠٢.

(٢) عضاه: كل شجر ذي شوك.

(٣) وج: واد بالطائف، وسميت "وجا" بوج بن عبد الحق من العمالقة وقيل من خزاعة".

(٤) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٤٢ - ٥٤٣ والروض الأنف ٧/ ٣٣٧، وزاد المعاد ٣/ ٥٠١ والبداية والنهاية ٥/ ٣٤ وشرح المواهب ٤/ ٩ - ١٠)، مرويات غزوة حنين وحصار الطائف، ٢ / ٥٠٣.

(٥) أصل القصة المغيرة هذه في صحيح البخاري ٣/ ١٧٠ كتاب الشروط، باب الشروط في

- ومنها جواز إنزال المشرك في المسجد[1]، ولا سيما إذا كان يرجو إسلامه، وتمكينه من سماع القرآن، ومشاهدة أهل الإسلام وعبادتهم".

- ومنها حسن سياسة الوفد، وتلطفهم حتى تمكنوا من إبلاغ ثقيف ما قدموا به فتصوروا لهم بصورة المنكر لما يكرهونه الموافق لهم فيما يهوونه حتى ركنوا إليهم واطمانوا فلما علموا أنه ليس لهم بد من الدخول في دعوة الإسلام أذعنوا، فأعلمهم الوفد أنهم بذلك قد جاؤوهم ولو فاجؤوهم به من أول وهلة لما أقروا به، ولا أذعنوا، وهذا من أحسن الدعوة وتمام التبليغ، ولا يتأتي إلا مع ألباء الناس وعقلائهم".

- منها أن المستحق لإمرة القوم وإمامتهم أفضلهم وأعلمهم بكتاب الله وأفقههم في دينه".

- ومنها هدم مواضع الشرك التي تتخذ بيتا للطواغيت، وهدمها أحب إلى الله ورسوله، وانفع للإسلام والمسلمين من هدم الحانات والمواخير[2]، وهكذا حال المشاهد المبينة على القبور التي تعبد من دون الله، ويشرك بأربابها مع الله لا يحل إبقاؤها في الإسلام، ويجب هدمها، ولا يصح وقفها، ولا الوقف عليها، وللإمام أن يقطعها وأوقافها لجند الإسلام، ويستعين بها على مصالح المسلمين، وكذلك ما فيها من الآلات، والمتاع والنذور التي تساق إليها".

يضاهى بها الهدايا التي تساق إلى البيت الحرام، للإمام أخذها كلها وصرفها في مصالح المسلمين، كما أخذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أموال بيوت هذه الطواغيت، وصرفها في مصالح الإسلام، وكان يفعل عندها ما يفعل عند هذه المشاهد، سواء من النذور لها، والتبرك بها، والتمسح بها، وتقبيلها واستلامها، هذا كان شرك القوم بها، ولم يكونوا يعتقدون أنها خلقت السماوات والأرض، بل كان شركهم بها كشرك أهل الشرك من أرباب المشاهد بعينه".

---

الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط.

(١) في صحيح البخاري أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث خيلا قبل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد". الحديث ١/ ٨٣ كتاب الصلاة باب الاغتسال إذا أسلم وربط الأسير أيضا في المسجد".

(٢) الحانوت: "دكان الخمار، ومحل التجارة وجمعه حوانيت، والحانة البيت الذي يباع فيه الخمر وهو الحانوت أيضا ويجمع على حانات". والمواخر والمواخير: "مجمع أهل الفسق والفساد". (المصباح المنير ١/ ١٩٠ - ١٩١ والقاموس المحيط ١/ ١٤٦ والمعجم الوسيط ١/ ٢٠١، و٢/ ٨٥٧).

- ومنها استحباب اتخاذ المساجد مكان بيوت الطواغيت، فيعبد الله وحده، لا يشرك به شيء في الأمكنة التي كان يشرك به فيها وهكذا الواجب في مثل هذه المشاهد أن تهدم، وتجعل مساجد إن احتاج إليها المسلمون وإلا أقطعها الإمام هي وأوقافها للمقاتلة وغيرهم".

- ومنها أن العبد إذا تعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وتفل عن يساره، ولم يضره ذلك، ولا يقطع صلاته، بل هذا من تمامها وكمالها[1]".

وفي غزوة حنين نزلت الآيات: قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٥ - ٢٧].

## أسباب الهزيمة وعوامل النصر في حنين:

### أسباب الهزيمة في الجولة الأولى:

- أن شيئاً من العجب تسرب إلى قلوب المسلمين لما رأوا عددهم، فقد قال رجل منهم: لن نغلب اليوم من قلة، فشق ذلك على النبي ﷺ فكانت الهزيمة.

- خروج شبان ليس لديهم سلاح أو سلاح كاف، وإنما عندهم حماس وتسرع.

- أن عدد المشركين، كان كثيراً بلغ أكثر من ضعفي عدد المسلمين.

- أن مالك بن عوف سبق بجيشه إلى حنين، فتهيأ هنالك ووضع الكمائن والرماة في مضايق الوادي وعلى جوانبه، وفاجؤوا المسلمين برميهم بالنبال وبالهجوم المباغت.

- كان العدو مهيأً ومنظماً ومستعداً للقتال حال مواجهته لجيش المسلمين، فقد جاء المشركون بأحسن صفوف رأيت: صف الخيل ثم المقاتلة ثم النساء من وراء ذلك، ثم الغنم ثم النعم.

٦ - وجود ضعاف الإيمان الذين أسلموا حديثاً في مكة، ففروا فانقلبت

(١) زاد المعاد ٣/ ٦٠٠ - ٦٠٢، مرويات غزوة حنين وحصار الطائف، ٢ / ٥٠٩.

أولاهم على أخراهم، فكان ذلك سبباً لوقوع الخلل وهزيمة غيرهم[1].

**- عوامل النصر:**

كانت عوامل النصر في حنين لعدة أسباب منها:

- ثبات الرسول في القتال وعدم تراجعه، مما جعل الجنود يثبتون ويستجيبون لنداء القائد الثابت.

- شجاعة القائد: فالرسول القائد لم يثبت في مكانه فحسب بل تقدم نحو عدوه راكباً بغلته، فطفق يركض ببغلته قبل الكفار والعباس آخذ بلجام البغلة يكفها أن لاتسرع.

- ثبات قلة من المسلمين معه وحوله حتى جاء الذين تولوا وأكملوا المسيرة مسيرة الثبات والبر والقتال حتى النصر.

- سرعة استجابة الفارين والتحاقهم بالقتال.

- وقوع الجيش المعادي في خطأ عسكري قاتل وهو عدم الاستمرار في مطاردة الجيش الإسلامي بعد فراره، مما أعطى فرصة ثمينة للجيش الإسلامي ليلتقط أنفاسه ويعود إلى ساحة القتال ويستأنف القتال من جديد بقيادة القائد الثابت الشجاع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- رمية الحصى: فقد أخذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار ثم قال: انهزموا ورب محمد[2].

٧ - الاستعانة والاستغاثة بالله عز وجل فقد كان الرسول يلح على الله في الدعاء بالنصر على الأعداء.

- إنزال الملائكة في الغزوة ومشاركتها فيها وقد سجل الله هذه المشاركة في كتابه الكريم وفي سورة التوبة[3]: ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

---

(١) المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٤٠٩).

(٢) مسلم بشرح النووي (١٢/ ١١٦ - ١١٧).

(٣) السيرة النبوية لابي فارس، ص٤٢٣. السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة، ٢ / ٥٦٩.

## مواقف إيمانية:

### - حراسة أنس بن أبي مرثد الغنوي للمسلمين:

لما سمع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بان هوازن ومن شايعها من القبائل الأخرى حشدت قواها لضرب المسلمين، اهتم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لذلك غاية لاهتمام، وأعد للموقف عدته.

فأمر أحد قواده أن يذهب إلى القوم ليعلم له ذلك، وليرصد له وجهتهم وقدراتهم القتالية، زيادة في التثبت في حقيقة الأمر.

فذهب ذلك الجندي لمهمته، فدخل في القوم فوجدهم على أتم استعداد لملاقاة المسلمين، قد جمعوا جموعهم بما فيهم النساء والذراري والأموال، فعاد مسرعا، فنقل لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خبرهم، فتبسم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال: «**تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء الله**».

(عن سهل بن الحنظليّة، أنهم ساروا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم حنين فأطنبوا السّير، حتّى كانت عشيّة، فحضرت الصّلاة عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فجاء رجل فارس فقال: يا رسول الله، إنّي انطلقت بين أيديكم حتّى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن على بكرة آبائهم بظعنهم ونعمهم وشائهم اجتمعوا إلى حنين، فتبسّم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: «**تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء الله**» ثمّ قال: «**من يحرسنا اللّيلة؟**» قال أنس بن أبي مرثد الغنويّ: أنا يا رسول الله، قال: «**فاركب**» فركب فرسا له، فجاء إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال (له) رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**استقبل هذا الشّعب**[1] **حتّى تكون في أعلاه، ولا نغرّنّ**[2] **من قبلك اللّيلة**» فلمّا أصبحنا خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى مصلّاه فركع ركعتين ثمّ قال: «**هل أحسستم فارسكم؟**» قالوا: يا رسول الله، ما أحسسناه، فثوّب بالصّلاة[3]، فجعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلّي وهو يلتفت إلى الشّعب حتّى إذا قضى صلاته وسلّم قال: «**أبشروا فقد جاءكم فارسكم**» فجعلنا ننظر إلى خلال الشّجر في الشّعب فإذا هو قد جاء حتّى وقف على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسلّم فقال: إنّي انطلقت حتّى كنت في أعلى

---

(١) الشعب: الطريق بالجبل وجمعه شعاب.

(٢) لا نغرّن من قبلك الليلة: أي لا نؤخذ على غرة من الناحية التي أنت بها.

(٣) ثوّب بالصّلاة: أي أقيمت الصلاة.

هذا الشّعب حيث أمرني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فلمّا أصبحت اطّلعت الشّعبين كليهما فنظرت فلم أر أحدا ، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هل نزلت اللّيلة؟**» قال: لا إلّا مصلّيا أو قاضيا حاجة ، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قد أوجبت**[1] **فلا عليك أن لا تعمل بعدها**»[2] .

وفي هذا الخبر يظهر لنا المنهج النبوي الكريم في الإهتمام بالأفراد ، فقد ظهر اهتمام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بطليعة القوم حتى جعل يلتفت في صلاته ، وما كان ذلك ليحدث إلا لأمر هام ، ثم إنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: أبشروا فقد جاء فارسكم . إنها الكلمة التي يستعملها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إخبارهم بما يسرهم من الأمور العظيمة ، تلك هي أهمية الفرد في المجتمع الإسلامي ، إنه ليس كماً مهملاً ، ولارقماً في سجل ، ولا بزالاً في آلة ، يستغنى عنه عند الضرورة: ليؤتى بغيره . إنها بعض التفسير للمنهج الإلهي[3] في قوله: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا**﴾ [الإسراء: ٧٠] .

وفي قول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قد أوجبت فلا عليك أن تعمل بعدها ، فهذا محمول على النوافل التي يكفر الله بها السيئات ، ويرفع بها الدرجات ، والمقصود أنه عمل عملاً صالحاً كبيراً يكفي لتكفير ماقد يقع منه من سيئات في المستقبل ، ويرفع الله به درجاته في الجنة ، وليس المقصود أن هذا العمل يكفيه عن أداء الواجبات[4] .

والحديث يدل على اهتمام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ البالغ بمعرفة أعدائه ، حيث كان يتابع تحركاتهم ويرقب سيرهم حتى يكون على بصيرة وخبرة بما يدبرون ضده من مؤامرات ، وفيه معجزة نبوته حيث أخبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن ما حشدته هوازن من قوة ستكون غنيمة للمسلمين ، وقد وقع ما أخبر به عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

وفيه منقبة عظيمة لأنس بن أبي مرثد الغنوي ، وفضل الحراسة في سبيل الله عز وجل .

وفيه تسابق الصحابة وحرصهم على ما فيه نفع للمسلمين وخدمة لدينهم

---

(١) أوجبت: أي لنفسك الجنة .

(٢) أبو داود (٢٥٠١) ، وصححه الألباني (٢١٨٣) .

(٣) معين السيرة ، ص٤٢٩ .

(٤) التاريخ الإسلامي (٨/ ١٤) .

وامتثال أمر نبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . ودقة التزامهم بأوامره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فلم يبرح أنس موضعه إلا في حدود الرخصة التي أذن له فيها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وهكذا يكون الاتباع والامتثال بالوقوف عند أوامر الشرع ففيها الفلاح والصلاح .

## - شجاعة أم سليم يوم حنين:

وفي هذه الغزوة تبرز بوضوح كامل قيمة المرأة في المجتمع المسلم ، فإنها فيه عضو فعال ، فها هي الأحاديث الصحيحة تصرح بأن المرأة على عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تشارك في الحرب ، كما أنها في السلم سيدة البيت ومربية أجيال ، فليس في الإسلام حظر للمرأة أن تشارك الجيش أعباءه في القتال ، بل في ذلك حث لها على سقي الماء ومداواة الجرحى وتمريض المرضى ، وأكثر من ذلك فقد قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن أم سليم اتخذت يوم حنين خنجراً[1] ، فكان معها فرآها أبو طلحة . فقال: يارسول الله هذه أم سليم معها خنجر ، فقال لها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما هذا الخنجر؟**» قالت: اتخذته إن دنا مني أحد من المشركين بقرت به بطنه . فجعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يضحك . قالت: يارسول الله: اقتل من بعدنا[2] من الطلقاء [3] انهزموا بك[4] فقال رسول الله: «**يا أم سليم إن الله قد كفى وأحسن**»[5] .

ولكن كل ذلك مقيد بقيود الإسلام وشروطه التي تهدف إلى صيانة المرأة عن الابتذال والسفور ، والخروج عن حد الاعتدال ، لتكون لقمة سائغة لكل جسد شهواني ، كما تدعو إليه حضارة الغرب والشرق اليوم ، ويقلدهم في ذلك أذنابهم من أبناء المسلمين ، الذين اغتروا بهذه الدعايات الزائفة ، التي يروجها دعاة الباطل والإلحاد ، بغية الانجراف في تياراتهم المنحرفة الضالة ، التي تهدف إلى خلخلة البناء الإسلامي من أساسه الأول وهو الأسرة ، وقوام الأسرة في الإسلام ، هو المرأة المسلمة ، فإذا خرجت وانتهكت الحرمات ، وتبرجت تبرج الجاهلية الأولى ، فقد وصل دعاة تحرير المرأة إلى مبتغاهم الخبيث[6] .

---

(١) خنجراً: سكين كبير ذات حدين .
(٢) من بعدنا: من سوانا .
(٣) الطلقاء: هم الذين أسلموا يوم الفتح وكانوا سبب الانهزام في المرة الاولى .
(٤) انهزموا بك: انهزموا عنك .
(٥) مسلم ، رقم ١٨٠٩ ؛ صحيح السيرة النبوية ، ٥٦٣ .
(٦) مرويات غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع ، ص ٣٢٣ .

**وقد استنبطت من غزوة حنين والطائف جملة أحكام منها:**

**- جواز وطء المسبية بعد الاستبراء:**

- نزول الآية الكريمة: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]. في يوم أوطاس لبيان حكم المسبيات المتزوجات، وقد فرق السبي بينهن وبين أزواجهن، فأوضحت الآية جواز وطئهن إذا انقضت عدتهن، لأن الفرقة تقع بينهن وبين أزواجهن الكفار بالسبي وتنقضي العدة بالوضع للحامل وبالحيض لغير الحامل [(١)].

**وقوع العزل في أوطاس:**

العزل هو نزع الذكر بعد الإيلاج لينْزل خارج الفرج، وكان الصحابة يفعلون ذلك مع الإماء خشية أن تحمل الأمة فيمتنع بيعها لأنها تصير بذلك أم ولد[(٢)]".

فعن أبي سعيد الخدري أنهم أصابوا سبايا يوم أوطاس، فأرادوا أن يستمعوا منهن ولا تحملهن، فسألوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك فقال: «**لا عليكم أن لا تفعلوا، فإن الله عز وجل قد كتب من هو خالق إلى يوم القيامة**» [(٣)].

**- منع المخنثين من الدخول على النساء الأجنبيات:**

جاءت الشريعة الإسلامية بالمحافظة على الأعراض وسدت كل المنافذ التي يخشى منها على أعراض المجتمع الإسلامي، ومن ذلك حماية الأسرة المسلمة من دخول بعض الرجال الذين أطلق عليهم في عرف السلف المخنثون، وهم من خلق متخلقا بأخلاق النساء وزيهن وكلامهن وحركاتهن من غير تكلف، ولا إربة له في النساء أصلا، وهذا الضرب من الرجال شاذ في تكوينه، غير أن هذا الشذوذ خلقي جبلي فيه ولذلك كان بعض هؤلاء يدخلون على النساء بلا إنكار عليهم في ذلك ولكن لما بدر من بعضهم وصف النساء وتحديق النظر في مفاتن المرأة ومحاسنها حظر عليهم الشرع الإسلامي الدخول على النساء منعا للفتنة وسدا للذريعة فعن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: "دخل عليّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعندي مخنث[(٤)] فسمعته يقول لعبد الله بن أبي أمية: "يا عبد الله أرأيت إن فتح

---

(١) أحمد - المسند ٣/ ٤٨٨.

(٢) هدي الساري ص: "١٥٦، والمصباح المنير للفيومي ٢/ ٤٨٥.

(٣) شرح معاني الآثار ٣/ ٣٣.

(٤) المخنث: "بكسر النون وفتحها هو الذي يشبه النساء في أخلاقه وكلامه وحركاته، ويطلق

الله عليكم الطائف فعليك بابنة غيلان فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان[1]، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألا أرى هذا يعرف[2] ما هاهنا لا يدخلن عليكن**». قالت: "فحجبوه[3]".

## -النهي عن قتل النساء والضعفاء ومن في حكمهم:

من محاسن الإسلام أنه دين الرحمة والعدالة، ومن أبرز ما يؤكد هذه الحقيقة موقفه من الضعفاء والنساء والأطفال في حال النّزال والقتال والتقاء الصفين، لأن هؤلاء المستضعفين ليسوا أهل شوكة ولا مكيدة في الحرب، ولا ذنب لهم في الغالب فيما جره عليهم أهلوهم الكفرة من الصد عن سبيل الله ومحاربة الإسلام، فلا يجوز قتلهم ولا التنكيل بهم، إلا إذا كان الشيخ الهرم محاربا للمسلمين برأيه أو بأي وسيلة تمكنه، أو حاولت المرأة قتل أحد من المسلمين فيجوز قتلها دفاعا عن النفس، وأما الطفل فلا يتصور منه ذلك فهذا النمط من الرحمة والعطف في الحروب والمعارك الشديدة لا مثيل له في أي مبدأ من المبادئ قديما وحديثا، تاريخ الحروب البشرية شاهد صدق بذلك".

ولقد أكد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا المبدأ وجعله من أهم التوصيات التي يجب أن يجعلها كل أمير جيش أو سرية نصب عينيه، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث بريدة بن الحصيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين

---

عليه مخنث سواء فعل الفاحشة أو لم يفعل.

(١) وعند أبي داود وابن ماجه: "عن أم سلمة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل عليها وعندها مخنث وهو يقول لعبد الله أخيها: "إن يفتح الله الطائف غدا دللتك على امرأة تقبل بأربع وتدبر بثمان، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أخرجوهم من بيوتكم" ولفظ ابن ماجه "فسمع مخنثا وهو يقول إلخ".
وعنده أيضاً فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "أخرجوه من بيوتكم" وقوله (تقبل بأربع وتدبر بثمان فسره البخاري في الحديث بقوله: "قال أبو عبد الله: "تقبل بأربع وتدبر بثمان: "يعني أربع عكن بطنها، فهي تقبل بهن، وقوله تدبر بثمان: "يعني أطراف هذه العكن الأربع لأنها محيطة بالجنين حتى لحقت، وإنما قال بثمان ولم يقل بثمانية وواحد الأطراف وهو ذكر، لأنه لم يقل بثمانية أطراف".

(٢) وعند أبي داود وأحمد والبيهقي "فقال: "ألا أرى هذا يعلم ما ههنا لا يدخلن عليكن هذا وحجبوه".

(٣) (صحيح مسلم: "٤/ ١٧١٦ كتاب السلام، باب منع المخنث من الدخول على النساء الأجانب).

خيرا ، ثم قال: «**اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا**» [1] .

والشاهد من الحديث قوله: «**ولا تقتلوا وليدا**» وهو نهي والنهي يقتضي التحريم ، فيحرم قتل الصبيان والنساء والشيوخ والرهبان ، الذين ليس من شأنهم أن يقاتلوا".

وهكذا امتازت الحروب الإسلامية بهذا المبدأ ، فلا يقتل إلا من يتأتى منه القتال ، أما الذين لا يد لهم في القتال ولا قدرة عليه ، فالشريعة الإسلامية تنهى عن قتلهم وترويعهم ، وقد جاءت جملة صالحة فعن عبد الرحمن بن أبي عمرة قال: "مر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم حنين بامرأة مقتولة ، فقال: «**ألم أنه عن هذا؟**» . فقال رجل: "أردفتها فأرادت أن تقتلني ، فقتلتها ، فأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدفنها" [2] .

وعن الأسود بن سريع أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث سرية يوم حنين ، فقاتلوا المشركين فأفضى بهم القتل إلى الذرية فلما جاؤوا قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما حملكم إلى قتل الذرية؟**» قالوا: "يا رسول الله إنما كانوا أولاد المشركين ، قال: «**أو هل خياركم إلا أولاد المشركين، والذي نفس محمد بيده ما من نسمة تولد إلا على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها**» [3] .

**-إقامة الحد في دار الحرب:**

الحد في اللغة: "المنع والفصل بين الشيئين ، فكأن حدود الشرع فصلت بين الحلال والحرام".

وفي الشرع: "هي عقوبة مقدرة شرعا في معصية لتمنع من الوقوع في مثلها".

وفي هذه الغزوة جيء برجل إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد سكر فأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من كان عنده فضربوه بما كان في أيديهم وحثا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه

---

(١) صحيح مسلم ٣/ ١٣٥٧ كتاب الجهاد والسير ، باب تأمير الأمير على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها ، وقد ساق البيهقي جملة من النصوص بعدة أسانيد فيها النهي عن قتل الرهبان والشيوخ والمرضى والصبيان والنساء والوصفاء والعسفاء". (السنن الكبرى ٩/ ٨٩ - ٩١) .

(٢) مصنف عبد الرزاق ٥/ ٢٠١ .

(٣) أحمد - المسند ٣/ ٤٨٨ ، الحاكم - المستدرك ٢/ ١٢٣ ، البيهقي - السنن ٩/ ١٣٠ . أبو داود - السنن ١٢/ ١٩٦ - ١٩٧ ، أحمد - المسند ٤/ ٣٥٠ ، الدارقطني - السنن ٣/ ١٥٧ - ١٥٨ .

التراب، ردعا له جزاء ما ارتكب وتطهيرا له مما علق به من دنس المعصية".

فعن عبد الرحمن بن أزهر الزهري قال: "رأيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم حنين يتخلل الناس - أي يدخل بينهم - يسأل[1] عن منزل خالد بن الوليد، فأتي بسكران فأمر من كان عنده فضربوه بما كان في أيديهم، ثم حثا عليه التراب - أي: "رمى بيده عليه التراب - ثم أتي أبو بكر بسكران فتوخّي[2] الذي كان من ضربهم عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فضربه أربعين"[3].

## - تحريم الغلول في الغنيمة:

الغلول: "هو اعتداء بعض أفراد الجيش على أموال الغنيمة قبل قسمها وهو من كبائر الذنوب، ولا يقدم عليه إلا ضعيف الإيمان ضعيف النفس يحمله جشعه وسوء طبعه على هذه الخيانة العظيمة لإخوانه المجاهدين معه في سبيل الله ولعظيم خطر الغلول جاءت النصوص في الكتاب والسنة تحذر من الوقوع فيه وتبين أنه ذنب عظيم وجريمة أخلاقية فظيعة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١].

قال الشوكاني: "قوله: ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ﴾ أي يأت به حاملا له على ظهره كما صح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيفضحه بين الخلائق، وهذه الجملة تتضمن تأكيد تحريم الغلول والتنفير منه بأنه ذنب يختص فاعله بعقوبة على رؤوس الأشهاد يطلع عليها أهل المحشر، وهي مجيئه يوم القيامة بما غله حاملا له قبل أن يحاسب عليه ويعاقب عليه".

---

(١) وسبب السؤال عن منزل خالد بينه ما رواه عبد الرزاق والحميدي وأحمد وأبو عوانة الجميع من طريق معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن أزهر قال: "جرح خالد بن الوليد يوم حنين فمربي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنا غلام وهو يقول من يدل على رحل خالد بن الوليد؟ فخرجت أسعى بين يدي رسول الله وأنا أقول: "من يدل على رحل خالد بن الوليد؟ حتى أتاه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو مستند إلى رحل قد أصابته جراحة فجلس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنده، ودعا له".
(مصنف عبد الرزاق ٥/ ٣٨٠ - ٣٨١ ومسند الحميدي ٢/ ٣٩٨ ومسند أحمد ٤/ ٨٨ و٣٥٠ - ٣٥١ ومسند أبي عوانة ٤/ ٢٠٣).

(٢) "تَوَخَّي": "أي قصد يقال: "توخيت الشيء أتوخاه توخيا، إذا قصدت إليه وتعمدت فعله، وتحريت فيه".

(٣) (شرح معاني الآثار ٣/ ١٥٦). أبو داود - السنن ١٢/ ١٩٦ - ١٩٧، أحمد - المسند ٤/ ٣٥٠، الدارقطني - السنن ٣/ ١٥٧ - ١٥٨.

وقوله: ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨١]، أي تعطى جزاء ما كسبت وافيا من خير وشر، وهذه الآية تعم كل من كسب خيراً أو شراً، ويدخل تحتها الغال دخولاً أوليا لكون السياق فيه[١]". اهـ".

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "قام فينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات يوم فذكر الغلول[٢] فعظمه وعظم أمره[٣] ثم قال: «لا ألفين[٤] أحدكم يجيء يوم القيامة، على رقبته بعير له رغاء[٥]، يقول: "يا رسول الله! أغثني فأقول: "لا أملك لك شيئاً[٦] قد أبلغتك لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة، على رقبته فرس له حمحمة[٧]، فيقول يا رسول الله! أغثني فأقول: "لا أملك لك شيئا قد أبلغتك لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة، على رقبته شاة لها ثغاء[٨]، يقول: "يا رسول الله! أغثني فأقول: "لا أملك لك شيئا قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة، على رقبته نفس لها صياح[٩]، فيقول يا رسول الله! أغثني، فأقول: "لا أملك شيئا قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع[١٠] تخفق[١١]، فيقول: "يا رسول الله! أغثني، فأقول:

---

(١) فتح القدير ١/ ٣٩٤".

(٢) الغلول: الخيانة في المغنم".

(٣) قوله: "ذكر الغلول فعظمه وعظم أمره"، قال النووي: "هذا تصريح بغلظ تحريم الغلول، وأصل الغلول: "الخيانة مطلقاً، ثم غلب اختصاصه في الاستعمال بالخيانة في الغنيمة قال نفطويه: "سمي بذلك؛ لأن الأيدي مغلولة عنه، أي محبوسة، يقال: "غل غلولاً، وأغل إغلالاً". (شرح النووي على صحيح مسلم ٤/ ٤٩٥).

(٤) قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لا ألفين أحدكم إلخ"، (ألفين) بضم الهمزة وبالفاء المكسورة أي لا أجدن أحدكم على هذه الصفة، ومعناه لا تعمل عملا أجدكم بسببه على هذه الصفة". قال عياض: "وفي رواية العذري "لا ألفين" بفتح الهمزة والقاف وله وجه كنحو ما سبق لكن المشهور الأول". (شرح النووي على صحيح مسلم ٤/ ٤٩٥).

(٥) رغاء: "الرغاء صوت الإبل". (النهاية لابن الأثير ٢/ ٢٤٠).

(٦) قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لا أملك لك شيئا"، قال النووي: "قال القاضي: "معناه من المغفرة والشفاعة إلا بإذن الله تعالى، قال: "ويكون ذلك أولاً غضباً عليهم لمخالفته ثم يشفع في جميع الموحدين بعد ذلك، كما سبق في كتاب الإيمان في شفاعات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ". (شرح النووي على صحيح مسلم ٤/ ٤٩٥).

(٧) حمحمة: "هو صوت الفرس دون الصهيل".

(٨) ثغاء: هو صوت الغنم".

(٩) صياح: "هو صوت الإنسان".

(١٠) رقاع: جمع رقعة والمراد بها هنا الثياب".

(١١) تخفق: "تضطرب".

"لا أملك شيئا، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت[1]، فيقول: "يا رسول الله! أغثني فأقول: "لا أملك لك شيئا قد أبلغتك"[2].

ومن هذا تظهر عناية الإسلام بالحقوق العامة وتقديمها على المصلحة الخاصة، وذلك أن الغنائم حق مشاع لجميع أفراد الجيش لا يجوز لفرد منهم أن تغلبه مصلحة نفسه فيأخذ من هذا الحق المشاع لنفسه بحجة أن له حقاً فيها، ولذلك جاءت هذه النصوص تنذر بالويل والعذاب الأليم لمن يغل ويخون في الغنائم قبل أن تتميز الحقوق وتظهر بالقسمة العادلة حصة كل فرد من أفراد الجيش الإسلامي، ويتضح ذلك جليا في تشديد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أخذ الخيط والمخيط وما فوق ذلك وما دون ذلك فهو أعظم حماية للحقوق العامة وأجل صيانة لاحترام المصالح العامة للأمة، وفي نفس الوقت فإن حقوق الفرد لا تضيع فسوف تقسم هذه الغنائم ويأخذ كل فرد حقه كاملا غير منقوص، وهذه خصائص الدين الإسلامي العظيمة التي يجب فهمها وتطبيقها بالعلم والعدل"[3].

**- جواز إعطاء الغنائم للمؤلفة قلوبهم:**

وجواز قطع وتحريق أشجار وبساتين الكفار إذا كان في ذلك إضعاف لهم.

**كما شرعت العمرة من الجعرانة:**

فقد أحرم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعمرة من الجعرانة وكان داخلاً إلى مكة وهذه هي السنة لمن دخلها من طريق الطائف ومايليه، وأما مايفعله كثير مما لاعلم عندهم من الخروج من مكة إلى الجعرانة ليحرم منها بعمرة ثم يرجع إليها فهذا لم يفعله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولااستحبه أحد من أهل العلم، وإنما يفعله عوام الناس زعموا أنه اقتداء بالنبي وغلطوا، فإنه إنما أحرم منها داخلاً إلى مكة، ولم يخرج منها إلى الجعرانة ليحرم منها[4].

---

(١) الصامت: "الصامت من المال: "الذهب والفضة". (انظر: "النهاية في غريب الحديث ١/ ٢١٤ - ٤٣٦ و٢/ ٢٥١و٣/ ٥٢).

(٢) البخاري: "الصحيح ٤/ ٥٩ كتاب الجهاد باب الغلول". ومسلم: "الصحيح ٣/ ١٤٦١ كتاب الإمارة، باب غلظ تحريم الغلول والرفض له".

(٣) إبراهيم بن إبراهيم قريبي، مرويات غزوة حنين وحصار الطائف، ٢ / ٦٩٥.

(٤) مسلم - الصحيح ٤/ ١٨٠٦، زاد المعاد (٣/ ٥٠٤).

**- إرشاده للأعرابي بأن يصنع في العمرة مايصنع في الحج:**

قال يعلى بن منبه: جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو بالجعرانة وعليه جبة، وعليها خلوق[1]، أو قال: أثر صفرة، فقال: كيف تأمرني أصنع في عمرتي؟ قال: وأنزل على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الوحي، فستر بثوب، وكان يعلى يقول: وددت أني أرى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد أنزل الوحي عليه، قال: فرفع عمر طرف الثوب عنه، فنظرت إليه، فإذا له غطيط (قال) فلما سري عنه قال: أين السائل عن العمرة؟ اغسل عنك الصفرة، أو قال أثر الخلوق، واخلع عنك جبتك، واصنع في عمرتك ما أنت صانع في حجتك[2].

**نتائج غزوة حنين والطائف:**

- انتصار المسلمين على قبيلتي هوازن وثقيف في هذه الغزوة.

- كانت غزوة حنين والطائف آخر غزوات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمشركي العرب.

- رجوع كثير من أهل مكة والأعراب بغنائم إلى مواطنهم تأليفاً لهم لدخول الإسلام، حصول الأنصار على وسام عظيم وهو شاهدة رسول الله لهم بالإيمان والدعاء لهم ولأبنائهم وأحفادهم ورجوعهم برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة.

- انضمام كوكبة مباركة من قيادة أهل مكة وهوازن إلى الإسلام وأصبحوا حرباً ضروساً على الأوثان والأصنام والمعابد الجاهلية في الجزيرة العربية، كما كان لقبيلة هوازن دور كبير في مجاهدات أهل الطائف والتضييق عليهم حتى أسلموا.

- توسعت الدولة الإسلامية وأمتدّ نفوذها وأصبح لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمراء بمكة وعلى قبيلة هوازن وصارت تلك الأماكن جزء من الدولة الإسلامية التي عاصمتها المدينة النبوية، وأصبح بالإمكان أن يرسل رسول الله بعوث دعوية بدون خوف أو وجل من أحد وصارت المدينة بعد الفتح تستقبل وفود المستجيبين، وأخذت حركة السرايا تستهدف الأوثان والأصنام لتهديمها، فقد أصبح استئصال وجودها من الجزيرة سهلاً، ونظم رسول الله فريضة الزكاة فكلف من يقوم على جمعها من القبائل التابعة للدولة[3].

* * * * *

(١) خلوق: طيب.

(٢) صحيح السيرة النبوية، ص٥٧٨.

(٣) الأساس في السنّة وفقهها في السيرة النبوية، ٢/ ٩٦١.